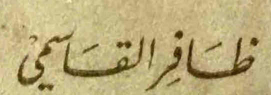
نصوص ودروس

مكتب عنبر

صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية





صور وذكريات من

حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية

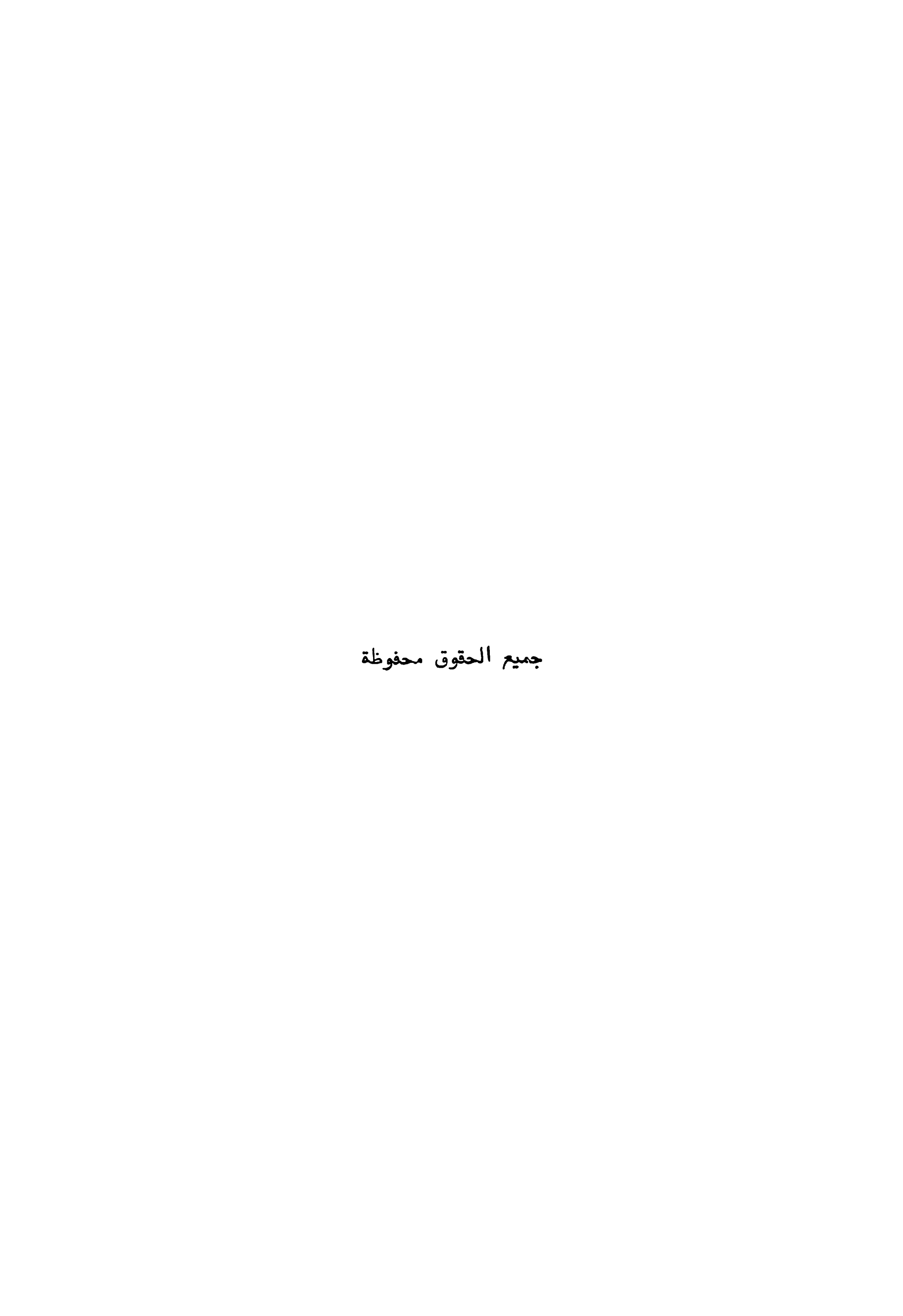
نصوص ودروس

مكتب عنبر

صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية

ظافر القاسمي

٢٧ — المطبعة الكاثوليكية - بيروت



الإهداء

إلى روح أخي الدكتور مسلم القاسمي

قُدِّر عليك ، يا اخي ، ان تنتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الباقية ، وانت غَضُّ الإهاب ، في شَرْخ الشباب ، لم تجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، وبعد اسابيع معدودات من نيلك شهادة الطب .

وقُدِّر عليك وعليّ ، ان نعيش يتيمين ، فقد التحق ابونا جمال الدين القاسمي بالرفيق الأعلى — بعد ان نذر حياته للاصلاح ، وبعد ان اغنى الثقافة العربية والاسلامية بمكتبة كاملة من تآليفه — ولم يكن عمرك يوم انتقاله اكثر من سبع سنين ، ولم يكن عمري اكثر من سنة وثلاثة اشهر ، فحُرمت وإيّاك من حنان الأب ، الذي رُزقه غيرنا من اطفال الناس ، ولكن الله عوضنا عن بعض ما فقدنا . وهل كان يمكن ان نجد عوضاً عن ابينا جمال الدين ؟

لقد عوّضنا الله عن حنان الاب ، حنانَ الأم ، التي زيَّنتها الفطرة ، وصقلتها معاشرتها لزوجها جمال الدين ، فكانت مثلاً شروداً بين الأمهات .

ورُزقنا حنان العم والأخ ، في بيتنا ، فكانا مثلاً لنكران الذات ، وهل تجد كثيراً من امثال عمّنا (قاسم) الذي عزف عن الزواج ، فناءً في القيام على تربيتنا وتنشئتنا النشأة الصالحة؟ اما اخونا (ضياء الدين) فقد سبقنا جميعاً الى الملأ الأعلى ، وهو دون الثلاثين ، فكان حقاً من الكادحين في سبيل الحفاظ على كرامة بيت العلم ، واقامة أَوَدِ افراده . وسبقتَ عمك الى جنان الخلد ، فبكاك مثل النساء ، ولن انسى دموعه ولوعته ، من يوم تشييعك الى يوم لحاقه بك .

وبقيت وحدي بعدكم ، يا مسلّم ، اعيش في الماضي على قصره ، اكثر مما اعيش في الحاضر على طوله .

واليوم ، وقد جمعتُ شتات الفصول التي كتبتها عن (مكتب عنبر) ، وقدمتها الى المطبعة ، لم ابحث عمّن ينبغي ان اهديها اليه ، لأني ما خططت منها حرفاً ، إلا وكنتُ اشعر انك انت ممليها عليّ ، او موحي فكرتها ، او ملهم معانيها .

اذا كنت ، يا مسلّم ، قد عجزت عن البرّ بأبيك الذي انجباك ، لقصَر عمرك ، ولأنك قد مُتَّ وأنت في عمر الأزهار ، فلقد كنت ، شهد الله ، براً بآبائك الروحيين ، الذين ربوك في (مكتب عنبر) ، ولقد اورثتني انت هذا البر ، واشعرتني انت بحنانهم الأبوي ، قبل ان اراهم ، لأنك انهيت دراستك فيه ، في السنة التي بدأتها فيه .

ولن انسى ، ولا استطيع ان انسى ، ليالي الشتاء الطويلة ، في بيتنا القديم بباب الجابية ، سقى الله ايامه ، التي كنت اقضيها معك في — (الفرنكة) — الغرفة العلوية الوحيدة . كنت انت في هذه الليالي استاذي ، ومرشدي ، وموجهي . استعين بك ، لا تتبرم ، ولا تمل ، على الرغم من ان وقتك لم يكن يكفي لدراسة الطب ، لانك لم تكن تقنع بالنجاح ، وانما كنت تحرص دوماً على ان تكون الأول بين رفاقك . إنّ الأرَجَ الذي كانت تمتلئ به الغرفة العلوية ، والذي كان يفوح من نفسك الرضية ، الآمنة المطمئنة ، لا يَعْدِلُهُ عندي ، حتىَ اليوم ، أيُّ ارج آخر في الدنيا .

ولن انسى ، ولا استطيع ان انسى ، حلقاتنا في غير ايام الشتاء ، إما في المكتبة (وكنا نسمي مكانها : مُرَبَّع الكتب) ، وإما في الإيوان ، وإما حول البحرة التي تتدفق فيها من غير انقطاع مياه نهر (القنوات)[1] وحولها أُصُصُ الأزهار ، وفوقها وعن يمينها وشمالها انواع الأشجار ، وسماور الشاي يهيئ لنا الشراب الذي تعودناه في الليل والنهار . كنت ، يا مسلّم ، روح هذه الحلقات ، ومبعث سحرها ، ومصدر انسها . وكانت احاديثك لا تنقطع عن (مكتب عنبر) ، وعن آبائنا الروحيين فيه ، حتى خلال ست سنوات قضيتَها في دراسة الطب . إنني ما زلت اذكر غرامك بهم ، وتردادك لأقوالهم ، وحفظك لنكاتهم ، وبراعتك النادرة في تقليد لهجاتهم وحركاتهم ، ونشوتك في ذكر روائعهم وبدائعهم .

---

١) احد فروع نهر بردى التي ترتفق منها مدينة دمشق .

لقد اورثك بيت ابيك و (مكتب عنبر) ، يا مسلّم ، عشق الفصحى ، والفناء فيها ، حتى لم تعد تعرف غيرها لغةً للخطاب . وما زال رفاقك في الدراسة يذكرون ، حتى اليوم ، بكثير من الاعجاب والحنان ، كيف كانت الفصحى تتدفق عـــلى لسانك ، بدون اغراب ولا إسفاف ، مجانباً للتقعر ، مختاراً للسهل الممتنع ، من الجمل والألفاظ ، مما يخف على الاذن ، ويحلو في السمع .

وما زال المتتبعون للمصطلحات العلمية والمهتمون بها ، ونقلها الى العربية ، يذكرون ان استاذك النابغة الطبيب الاديب ، اللغوي الرقيق ، الدكتور مرشد خاطر رحمه الله ، الذي كان رئيساً لتحرير (مجلة المعهد الطبي العربي بدمشق) ، قـــد فسح لك في صفحات مجلته بحوثاً نشرها لك فيها ، منذ السنة الاولى لدراستك ، وما زالت هذه المجلة تشهد ان للطالب مسلّم القاسمي بحوثاً لغوية مفيدة .

وسيحفظ لك تاريخ العلم ، انك نبّهتَ استاذك الدكتور (ترابو Trabaud) ، خلال درس سريريات الأمراض الداخلية ، الى حادثة شاذة ، لم ينتبه اليها ، فكتب دراسةً عنها في مجلة (امراض البلاد الحارة) التي تصدر في باريس ، ولم يدّع هذا الرجل العالم ما ليس له ، فذكر في صدر المقال انه للأستاذ (ترابو) وللطالب مسلّم القاسمي .

وهذه قاعة الغريزة (الفيزيولوجيا) في كلية الطب بالجامعة السورية ، ما زالت تزين جدرانها ببعض لوحاتك التي اهديتها اليها ، وانت طالب ، وفيها تصوير مائي ، واضح مكبر ، لبعض ما اعتقدت انه نافع في تقريب البعيد ، وتفسير الغامض ، وايضاح المبهم .

وبعد ، فأرجو يا اخي مسلّم ، ان لا تلومني ، وانت في عليائك ، على اهداء هذه الفصول اليك ، اذا كنت ترى ان اساتذتنا في (مكتب عنبر) أحق بهذا الإهداء منك . ولكن ألا ترى أنني قد اهديت هذه الفصول ، في الواقع ، اليهم ، عن طريقك ؟ وانت وأنا ، ومن سبقنا ولحقنا من الرفاق ، بعضُ صنيعهم ، وجزء صغير من فضلهم على هذا الوطن الصغير الجميل ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ليست هذه الصفحات تاريخاً ، وان كان فيها شيء من التاريخ . فأنا لم اسلك مذاهب المؤرخين ولا طرائقهم ، ولا سعيت لاحتذاء مناهجهم في تدوين الوقائع ، والبحث عن الوثائق، الا بالقدر الذي يسمح به تدوين الذكريات البعيدة، ذات الأثر العميق. وما هذه الصفحات الا ذكريات لحوادث خلت ، انقضى على اقربها اكثر من ثلاثين عاماً ، ما زالت غضة طرية في نفسي ، كأنني فارقتها بالامس ، لم اعتمد في تدوينها على غير الذاكرة التي وعتها ، وعلى غير القلب الذي خفق وما زال يخفق بها حتى اليوم. واكبر ظني انه سيخفق بها طوال الحياة .

سألني بعض الاصدقاء عمّا اذا كنت قد عدت الى ما دوّنت خلال حياتي المدرسية ، او نبشت أوراقي القديمة ، لأستوحي منها ما كتبت في هذه الايام . وليت الأمر كان كذلك ، فما من شك في ان اموراً كثيرة فاتتني ، ولعل بعضها لا يقل عمّا في هذه الصفحات ، من حيث أثره في حياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية . فانا لا ادري كيف ابتدأت بكتابة هذه الصفحات ، ولا كيف انسقت الى متابعتها ، ولا كيف وقفت عند حادث زيارة (دوجوڤنيل) لمكتب عنبر عام ١٩٢٦ . وكل الذي أدريه أنني وجدت حاجة الى الكتابة فكتبت . ثم انقطعت الرغبة فوقفت . ويقيني ان حوادث أُخَر ، عظيمة الشأن ، وقعت بعد عام ١٩٢٦ ، وكنت شاهداً لكثير منها ، ولكن الكاتب لا حيلة له في الكتابة ولا في التوقف . والذي يعزيني ان رفاقي الذين سبقوني او عاصروني او لحقوني من خريجي مكتب عنبر كثيرون ، والحمد لله ، فعليهم اتكل في اكمال النقص ، وسد العجز .

ارجو ان أكون قد قمت ببعض الواجب عليّ نحو هذه المؤسسة العظيمة التي عشت أحلى أيامي بين جدرانها ، وما ذكرت مرة هذه الأيام الا شعرت بحنين عميق ، يدنيني من المثل الأعلى ، ويطرد عني اوضار المادية التي طغت على حياتنا في هذا العصر .

وأعمق شكري وامتناني لاخواني الذين قرأت عليهم هـــذه الفصول قبل نشرها ، فزوّدوني بارشاداتهم القيّمة ، ومطالعاتهم الهامة ، وذكّروني ببعض ما فاتني .

ظ. ق.

المقـــدّمـة

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

هذه فصول من كتاب (مكتب عنبر) الذي نثرت الأيام صفحاتـــه ، وشتّتت فصوله ، كتبها أخي الاستاذ النقيب ظافر القاسمي وكرّمني حين كلّمني في التقديم لها ، وشرط عليّ أن أجنب المقدمة الحديث عنه ، او الثناء عليه .

ولقد قبلت ، ثم ندمت !

قبلت لأن (مكتب عنبر) جمعني يوماً بالأخ ظافر فأحببت أن يجمعني به الكتاب عنه ، ولأنه فتح لي باباً ألج منه الى اطيب ذكرياتي ، وطريقاً أعود منه الى أحلى أيام حياتي .

وندمت لأن المقدمات انما تكون للتعريف بمؤلف مجهول ، او التمهيد لمبحث صعب ، وما في البحث صعوبة ، فهو سهل سائغ ، غذب اللغة ، بارع الأسلوب . وما بالمؤلف جهالة وهو من (نقباء) الصناعتين : صناعة المحاماة ، وصناعة البيان — ومن بلغـــاء اللسانين : لسان العرب ولسان الفرنسيين ، وهو من الاعلام الذين يُستدلُّ بهم ، ولا يُدَلُّ عليهم .

... قلت : إن هذا الكتاب فصول قيّمة من كتاب (مكتب عنبر) وليست هي الكتاب . ان لمكتب عنبر في تاريخ المكرمات كتاباً كبيراً ، ولكن تلاميـــذه تقطّعوه بينهم ، فمنهم من ذهب بالصحيفة الواحدة منه ، ومنهم من راح بالصحائف الكُثر ، ومنهم من لم يخرج منه بشيء ، ومنهم من حمل منه شيئاً فأضاعه في زحمة الحياة ، وعاد فارغ اليدين .

فاذا أردتم ان تقرؤوا (الكتاب) كله ، فدوروا عليهم جميعاً ، لتجمعوا صحائف الكتاب !

لقد عاش (مكتب عنبر) من اواخر القرن الذي مضى ، الى أوائل الحرب الثانية ، وهو يضم جمهرة المتعلمين في هذا البلد . كان هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق ، فكان يمرّ عليه كل شاب في دمشق . يدخل اليه ثم يخرج منه فيعلو في مدارج الحياة . او يغوص في اوحالها ، حتى ما تكاد تجد اليوم كبيراً في دمشق ، ولا صاحب اسم ، ولا ذا منزلة ، الا وقد جاز يوماً بـ (مكتب عنبر) .

ولقد كان من تلاميذه رجال ، لو عاشوا كلهم الى الآن ، لكان أصغرهم اليوم في الخامسة والسبعين . هم الذين كنا ندعوهم رجال الرعيل الأول ، وكانوا هم أول من رفع صوته بذكر العربية على عهد الاتحاديين من الترك[1] . وتسلسلت القوافل من بعدهم ، تجوز كلها بهذه الواحة الظليلة ، تستمتع بزهرها ، وتجني من ثمرها ، قبل ان توغل في صحراء الحياة .

فاذا اردتم ان تنشقوا الآن ريّاها ، وتتعللوا بعد فقدها بذكراها ، ففتشوا كل من تلقونه من رفاق الصبا ، علّ معه نفحةً من وَرْدها ، او عنده لمحة من عهدها .

سائلوهم جميعاً عن (مكتب عنبر) ، فان لدى كل واحد منهم طرفاً من حديثه ، وفضلاً من تاريخه ، فأمسكوا بأطراف الأحاديث تجيء في ايديكم فصول الكتاب : وهيهات ! بعد ما فات منها ما فات ، ومات مِنْ حَمَلَتِها من مات !

ويا ليتني أستطيع ان اروي لكم الفصل الذي حفظته من ذلك التاريخ الطويل ! لقد عشت فيه ست سنين ، كانت أحفل سنيّ حياتي بالعواطف ، واغناها بالذكريات ،

---

١) وما كان الترك العثمانيون الأولون أمة سَوْءٍ ، ولقد تسلّموا الحكم والارض الاسلامية مزَقٌ مُرَقَّعة ، ورُقَع ممزقة ، في كل مدينة ملك ، وعلى كل رابية عَلَم ، مماليكها ملوكها ، وعبيدها سادتها ، فأقاموا للإسلام دولة كانت ثالثة الدولتين الكبيرتين : الأموية والعباسية في صدر تاريخها . دولة بسطت يديها على ما بين فارس والنمسا ، وأدرنة وصنعاء ، وكان منها اول الأمر ملوك صالحون كبار ، ثم خالف آخرها سيرة أولها ، ودب الفساد اليها من يوم تركت قوانين الإسلام الذي كان به وحده عزها ، واخذت قوانين أعدائها ، حتى كان عهد الاتحاديين ، فكانوا قوماً كفرة فجرة ، لا يرضى بحكمهم مسلم تركي ، بَلْهَ المسلم العربي ، الذي حرصوا على تجريده من عربيته ، كما حرصوا على اخراجه من اسلامه .

وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار ، لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام ، التي يُرْسَم فيها المُصَوَّر ، وتخطط الغرف ، ويربى الأساس .

فكيف أدخل ست سنين ، بطولها وعرضها ، في عشر دقائق ، هي مدة تلاوة هذا الفصل ؟

كيف أجمع البحر في كأس ، واحصر الدنيا في صندوق ؟

•

لقد عشت فيها من الصف السابع الى الثاني عشر ، ما تأخرت ولا (رسبت).ولكنها لم تكن ست سنين ، الا بحساب التقويم المعلق على الجدار ، وهل يقاس الزمان بالأشهر والأعوام ؟

ان ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات ، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال ، وليل السجين المكبل بالاغلال ، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة ، ولحظة العذاب دهر طويل . وهذه هي نظرية النسبية ان كنتم سمعتم بها .

لقد تعلمها (آنشتاين) من ابن زيدون حين قال :

إنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ   بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ ٱللَّيْلِ مَعَكْ

ست سنين ، ولكنها كانت هي العمر .

لقد عشت فيها في دنيا لم تعرف الغش ، ولا الخداع ، ولا زيف الصداقات. لم يكن يتقدم فيها إلاّ الجاد العامل من الطلاب ، ولا يتأخر الا الخامل الكسول ، ولا يعلو احد درجة إلاّ اذا ثبت بالامتحان ، انه أهل لهذا العلاء .

فلما فارقت تلك الحياة ، ودخلت حياة الناس ، عرفت (يا أسفي !) ما الغش ، وما الخداع ، ولكني لم استطع ان اغش او ان اخدع ، فكنت الضحية لكل خادع غشاش !

لقد رأيت هذه الحياة لجة ، (يرتفع) فيها التبن والبعر ، و (ينزل) فيها الذهب والالماس[١] .

---

١) هي الالماس لا الماس كما يكتبها اكثر الكتاب .

قد اضطربت فيها الموازين ، واختلت المقاييس ، ونفق المنافقون ، وكسد الصادقون الصالحون !

ه

ولكن من قال انها كانت ست سنين ؟ كيف ، وكل ساعة منها ، بما حفلت به من جديد الأحاسيس ، وطريف العواطف ، كانت كأنها شهر ، وهأنذا في محكمة النقض من عشر سنين كوامل ، لم أجد فيها كلها لخلوها من العاطفة ، وفراغها من الشعور — الا يوماً واحداً يتكرر ، يوم واحد ، أمسه كغده ، وصباحه كمسائه ، ساعات تمرّ ، ما فيها شيء !

ه

كذلك كنتُ يا أخي الأستاذ ظافر لما شرعت أقرأ أصول كتابك عن (مكتب عنبر) التي تلطفت فبعثت بها اليّ .

لقد كنتُ من السأم والملال ، كأني في ظلام السينما ، فطلعت عليّ هذه الفصول طلوع الفلم ، الذي يعرض عالماً ، أبصره وأسمعه وأعيش في أحداثه .

لقد حرّكْتَ بها سواكن نفسي ، وبعثت لي ذكريات أمسي ، وهززتني هزاً ، حتى لقد أحسست كأن قد عادت لي مواضي أيامي !

وهل تعود الأيام الماضيات ؟!

لقد كان عهد مكتب عنبر ، جنّتي التي خرجت منها ثم لم أعد اليها ، فرجعتني اليها يا أخي ظافر بكتابك ، أطير من فوق أسوارها العالية ، وأبوابها الموصدة ، بجناحين من ذكرى وخيال ، حتى أدخلها مرة ثانية ، فأعيش فيها ، في حلم ممتع فتان .

ه

ان مدرّسي الإنشاء ، ومحدّثي الاذاعة ، لا يكادون يلقون أحداً حتى يسألوه : ما هو شعورك ؟

كلمة حفظوها ، فهم يرددونها ، لا هم يدرون عمّ يسألون ، ولا المسؤول يدري بمَ يجيب !

فهل تحب أن أتبع أساوب مدرّسي الانشاء ، ومحدّثي الاذاعة ، فأخبرك من غير أن يسألني أحد : كيف كان شعوري ، لما قرأت كتابك ؟

أعرفتَ البدويَّ العاشق ، الذي طالما أنسَ بلقاء المحبوب على غفلة الرقيب ، في ظلال الخيمة المنفردة ساعة الأصيل ، وعلى شط الغدير الصافي عند العشية ، وعلى سفح التل البعيد في ضوء القمر ، والليل يغلّف بسكونه همسات الغرام ...

... لياليَ رأى المنى ماثلاتٍ إمامه ، لما رأى حبيبه معه ، واللذائذُ كلها في يديه ، والماضي والمستقبل قد احتواهما هذا الحاضر ، فلم يعد يذكر فيه ما كان ، ولا يفكّر فيما يكون ، ثم يتفرّق الشمل الجميع ، وينأى الحبيب القريب ، ولا يبقى من مرابع الحب إلاّ الأطلال المواثل في القفرة الخالية ، قد جفّ الغدير ، وهُدّت الخيام ، ورحل الأحبّة ...

... ماذا يكون شعوره حين يجيئه من يحمل اليه رسالة من ليلاه ، فيها بشارة باللقاء ، ووعد بالوصول ؟

هذا هو شعوري لما قرأت هذه الفصول !

غير أن البدوي يأمُل ان يرجع الحبيب ، وتعود أمسيّات اللقاء ، وأنا أعيش بلا أمل ولا رجاء !

وهل أرجو أن يعود لي أمسي الذي مضى ، وآمل ان يرجع شبابي الذي ولّى ؟

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ ٱلْحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

ه

وبعد فيا اخي ظافر !

انك لم تستوف في هذه الفصول أخبار مكتب عنبر كلها ، ولكنك فتحت بها للناس باب الذكريات ، فما يقرأ تلميذ من تلاميذ المكتب خبراً مما رويت ، حتى يذكر خبراً مثله ، يرويه ويحدّث به .

لقد مرّ بمكتب عنبر آلاف من التلاميذ ، فما كان فيهم من هو أوفى له منك ، إذ سجّلت ما عرفت من تاريخه ، وحملت على ذكر ما لم تعرف .

ولقد كنا جميعاً في هذا المكتب ، ولكن اختلفت تواريخ وجودنا فيه ، ووجهات

نظرنا اليه ، فتعددت قصته بتعدد تلاميذه ، فصار لكل تلميذ فيه قصة جديدة ، فهل أروي طرفاً من قصتي فيه ؟

لقد كلفت أن أقدم لهذا الكتاب مقدمة أعلم أنه لا لزوم اليها ولا داعي لها !

فما لي قد جاوزت حدّي ، وجئت أشغل القراء بحديثي ؟

وما للقراء وحديثي أنا ، ولم فيما حدّث به المؤلف فأجاد وأفاد ، وجمع فأوعى ، ولكنه اثار في نفسي ألف ذكرى ، وبعث فيها ألف صورة ، فاضطرّني الى ان أنفّس عن نفسي ، بالاشارة الى بعضها !

فهل يأذن لي القراء ان أسوق اليهم طرفاً من حديثي في مكتب عنبر ؟

كان موعد دخولي المكتب سنة ١٩٢٠ ولكني لم ادخله الا بعد ذلك بسنتين ، ما قصّرت عنه سني ، ولا عاقني عنه كسلي ، ولكن طال اليه طريقي .

ذلك اننا شهدنا في سنتين اثنتين ، مولد انقلابين ، وموت حكومتين ، أدركنا عهد الترك ، ورأينا ذهاب الترك ، وعشنا في حكم فيصل ، وأبصرنا انهيار حكومة فيصل ، فكانوا كلما جدّت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا الى الصف الرابع ، فلم نستقر في الخامس الا سنة ١٩٢١ على عهد الفرنسيين ، وقد كنا فيه سنة ١٩١٨ على أيام العثمانيين .

لقد كان اول درس حضرناه في مكتب عنبر للشيخ عبد الرحمن سلام ، فاستقبلنا ، رحمة الله عليه بخطبة رنّانة ، اعلن فيها ، انه غدا ذلك اليوم مدرّساً للعربية حقاً .

ذلك أن من كان قبلنا من التلاميذ ، قد درسوا في العهد التركي ، فنشؤوا (الا من عصم الله) على ضعف بالعربية ، ومن كان معنا درسوا في العهد العربي . فكانوا أقوى ملكة ، واقوم لساناً .

رحمة الله على شيخنا عبد الرحمن سلام ، فلقد كان نادرة الدنيا ، في طلاقة اللسان ، وفي جلاء البيان . ولقد عرفتُ من بعده لُسُنَ الأدباء ومَصَاقِعَ الخطباء ، فما عرفت لساناً أطلق ، ولا بياناً أجلى . ولست انسى خطبته حينما اطلّ من شرفة النادي العربي ، قبل يوم ميسلون على بحر من الخلائق ، تموج موجان البحر ، قد ملأ ما بين محطة الحجاز ، والمستشفى العسكري في بوابة الصالحية[1] (الخسته خانة) ، وسراي الحكومة ،

---

١) ولم يكن قد فتح شارع بغداد .

وحديقة الأمة (المنشية) . وكَبّر تكبيرة رددتها معه هذه الحناجر كلها ، وأحسسنا كأن قد رددتها معه الخمائل من الغوطة ، والأصلاد من قاسيون . ثم صاح صيحته التي لا تزال ترن في اذني من وراء ثلاث وأربعين سنة ، حتى كأني اسمعه يصيح بها الآن : غورو ، لن تدخلها الا على هذه الأجساد[1] !

رحمة الله عليه ، وعلى استاذنا سليم الجندي ، الذي جاءنا بعد ما فارقنا سلام ، قافلاً الى بلدة بيروت . فكنا أول تلاميذه ، والذي كرهناه لما رأيناه ، ثم أحببناه لما خبَرناه ! الجنديُّ الذي مات وما أعرف تحت أديم السماء أعلم منه بالعربية وعلومها ، الجندي الذي ما رأينا مثله ، ولا أظن أننا سنرى مثله ابداً[2] .

وعلى استاذنا عبد القادر المبارك ، الذي كان الإمام في اللغة ، والمرجعَ فيها ، قيّد أوابدها ، وجمّع شواردها ، وحفظ شواهدها . وكان أعلم العرب بالعرب ، عرف أيامهم ، ووعى اخبارهم ، وروى اشعارهم . وكان المفرد في بابته[3] ، لا نظير له في العلماء ، تحس اذ تجالسه وتسمع منـــه ، كأن الأصمعي او أبا عبيدة قد تمثّلا لك في جبته ، وكأن ما كنت تقرؤه في التاريخ ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان .

اما درسه ، فما حضرت (على كثرة ما حضرت من الدروس) درساً اكثر منه حياة ، وأبقى في نفس سامعه أثراً . ان نغمته لا تزال الى اليوم في اذني ، وكلماته لا تزال في قلبي .

كنا ندخل (الصف) في مثل (العراضة) : أصوات عالية متداخلـــة ، وضجيج صاخب مزعج . وكان المدرسون يجدون مشقة في اسكات المتكلمين ، وتهدئة الصاخبين . فاذا كان درس الشيخ المبارك ، رأى التلاميذُ البابَ قد انفرج مصراعاه ، وبدا من بينهما جبين عريض ، من فوقه خط ابيض ، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامتـــه ، وجلجل صوته الذي كان يعرف من بين اصوات البشر جميعاً بضخامته وجهارته ، بِصَدْرِ بيتٍ من الشعر ، فيُسكت الطلاب ليسمعوا ، فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف ، ويتم البيت ، ويشرع بالدرس .

وكان يدرّس الفقه ، يقرئنا (مراقي الفلاح) اولاً ، ثم (الأحكام الشرعية لقدري

---

١) اقرأ الخبر مفصّلاً في كتابي (دمشق) .

٢) اطلت الكلام عنه ، في خطبتي التي خطبتها في حفلـــة تأبينه ، وهي في كتابي (من حديث النفس) .

٣) يقال هو من بابة فلان : اذا كان من اشكاله ونظرائه .

باشا) . ولكن درسه لم يكن يقتصر على الفقه ، بل كان فيه مع الفقه تفسير ، وحديث ، وقواعد من الأصول ، يسوقها بعبارات موجزة محكمة بليغة ، يلقيها ويرددها ، ويكتبها بالخط الثلث على اللوح ، بعرض الحوّارة[1] ، وكان يتخذ ضوابط يجمع فيها احكام الفقه ، ومفردات الغريب ، نحفظها فلا ننساها .

ولطالما دلّنا على كتب قرأتها وانتفعت بها ، فكانت هي رأس مالي في العلم — ولولاه ما سمعت بها .

انا اشهد اني استفدت من المبارك اكثر مما استفدت من الجندي ، وما فتئنا نقلده ، حتى صارت لهجته في التدريس ، لهجتنا ونحن لا ندري !

ولقد اقيمت حفلة سمر في بغداد ، في آخر سنة ١٩٣٧ او ١٩٣٨ ، لم اعد اذكر ، وقد كنت ادرس فيها ، فسأل الطلاب مدرّسيهم على عادة اعتادوها : هل يأذنون لهم بأن يقلّدوهم ؟ فمنهم من أذن ، ومنهم من أبى ، وكنت فيمن أذن . فقام تلميذ يقلّدني بزعمه ، ولكنه قلّد شيخنا المبارك . فقلت : هذا شيخنا المبارك . واذا بالتلاميذ يصيحون من الأركان الأربعة : بل هذا انت ، هذا انت !

فاذا انا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله ! اعني مثله في لهجته ونغمته ، لا في علمه . اين انا من علم الشيخ ؟

ولقد كان يعاب على درسه انه فوضى ، ومتى كانت الفوضى غريبة على ادبنا؟ هذه كتب الأدب العربي ، هل فيها الا (الفوضى) ؟ والانتقال من قصة الى مثل الى تفسير آية ، الى حكمة لأفلاطون ، الى ابيات من اشعار عقلاء المجانين ، الى حكاية لا تخلو من اللفظ الفاحش والمعنى البذيء ؟

هذه كتبنا الأدبية ، فلِمَ لا تكون دروس ادبائنا مثلها ؟

اما (البزم) فلم نقرأ عليه ، لقد قرأ عليه من جاء من التلاميذ بعدنا ، فخبّرونا انه كان مدرساً نادر المثيل . كان فصيح اللهجة ، بيّن الأسلوب ، تعرف ذلك من سلامه

---

١) كان رحمه الله يُسمّى الحوار (الْحَـكَـك) ، مع ان الذي أراه ان اسم الحوار عربي فصيح لأن التحوير هو التبييض كما أن اسم اللوح عربي فصيح ، والعامي الفصيح خير من الغريب المهجور .

وكلامه ، اذا سألك : (كَم الساعة ؟) أدركت من سؤاله انك أَمام إمـــام في العربية ، صارت الفصاحة له طبعاً لا تطبيعاً .

ولقد اتصل حبل المودة بِأَخـَرَةٍ بيني وبينه ، وكنت قد جافيته أولاً وناوأته ، وكتبت عليه .

ذلك انه كان رحمه الله ، يكتب في مجلة الميزان[1] كلمات ، يتناول فيهـا الأدباء بالتجريح ، لا يكاد يسلم من لسانه احد . فكتب عن الجندي انه (يهدم للمعرّي قصراً منيفاً ، ليبني بأنقاضه كوخاً حقيراً) . فانتصرتُ لشيخي الجندي ، وكتبت عن البزم انه (يعرف في النحو ما يجهله الناس ، ويجهل ما يعرفه الناس ، وان شعره جدار من الحجارة الصلد ، ولكنها مركومة ركماً ، ليس بينها ملاط) .

فغاظه ذلك مني ، وكفّ عن الجندي .

وما كنت في الحقيقة الا تلميذاً للبزم . ليس قدري من قدره ، ولا مكاني قريباً من مكانه ، وليس لمثلي ان يكتب ذلك عن مثله ، ولكنه غرور الشباب مني ، والغيرة على شيخي واستاذي . ولعله سكت عني استصغاراً لي ، او رحمة بي .

اما الشيخ الداوودي ، رحمه الله ، فقد كان يدرّس في صفوف غير صفوفنا ، فلم احضر عليه ، ولكن من حضر عليه يؤكد القول انه كان له من لطفه وظرفه ، وعطفه على تلاميذه ، وحرصه على افهامهم ، وتفننه في ذلك ما لا ينسونه . وكان شيخاً ابيض اللحية ، مريضاً . وكان يجيء المدرسة في آخر عمره على اتان (حمـــارة) بيضاء ، وكانت لذلك العهد مثل السيارة الخاصة اليوم . فكان ينزل عنها عند آخر الدهليز ، فيأخذ تلاميذه بيديه ، يساعدونه حتى يدخل الصف ، فيكون كأحسن مدرّس عرفوه ، فاذا خرج الى (الفرصة) لم يبق فيه قوة — فيلقي بنفسه على الأريكة يضطجع ، يستريح الى وقت الدرس التالي .

ولما توفي سنة ١٩٢٦ او قريباً منها . ألقيتُ على قبره رحمه الله كلمة لي ، وقصيدة لأخي انور العطار ، وكان طالباً معنا ، وكان ينظم الشعر الجيد من تلك الأيام .

لقد كان مكتب عنبر هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق ، بل كان الثانويـــة (الوحيدة) الكاملة في سورية ، فكان يأتي اليه الطلاب من كل مكان ليكملوا دراستهم

---

١) التي انشأها الأديب العبقريّ احمد شاكر الكرمي رحمه الله .

فيه . فلذلك اختاروا لتدريس كل علم فيه أكابر علمائــه . فكان من مدرّسينا في الرياضيات الأستاذ جودة الهاشمي رحمه الله ، الذي رأيته مرة بعد ما خرجت من المدرسة بسنين ، فسلمت عليه فابتسم لي ، فكدت اقضي من الدهشة — قال : ما لك ؟

قلت : لا شيء . قال : اراك دهشت . قلت : لأني رأيت عجباً ! قال : ما هو ؟

قلت : رأيتك يا سيدي تستطيع الابتسام !

وكنا نظنه لا يبسم ابداً .

ومن مناقبه انهم فتحوا باب تحقيق واسع ، اثر زيارة المسيو دوجوڤنيل[1] التي وصفها الأخ ظافر ، واعدوا اسئلة يسألونها التلاميذ ، ليعرفوا من دبّر الأمر ، ومن تولّى كِبْرَه ، واستدعوا التلاميذ كلهم واحداً بعد واحد ليجيب عليها ، وكنت فيمن دعي ، فلما صرت في غرفة المدير ، واخذت القلم لأكتب ، اقترب مني ، وقال لي هامساً : (ما بتعرف شي ، مو هيك ؟)

قلت : نعم يا سيدي . وكتبت تحت كل سؤال : لا أدري .

وتبيّن ان التلاميذ كلهم اجابوا بـ (لا ادري) ، وكان ذلك بتوجيه الأستاذ الهاشمي ، وكان هو المدير . ومرّ الحادث على جلاله وعظمه بسلام ، ولم ينل احداً من التلاميــذ كبير سوء . ولو كان المدير غيره لقُوِّضت المدرسة على رؤوس من فيها .

وكان المدير لما دخلنا المدرسة شريف بك رمو ، وهو اميرالاي متقاعد ، عسكري صارم ، ثرنا عليه الثورة المعروفة ، فَوَلِيَ الإدارة بعد خلعه المربي الكبير ، العـالم الجليل ، الذي لم يَفِ له هذا البلد ، وهو ابو (المعارف) فيه ، واستاذ اساتذته ، مصطفى تمر ، ثم وليها جودة بك ، رحم الله الجميع .

وكان زميله في تدريس الرياضيات الأستاذ مسلّم عناية ، عليه الرحمة . ولقد سحْتُ في البلدان ، ولقيت الرجال ، ودانيت الأذكياء من العلماء والأدباء ، ولا والله لم اجدَ فيمن لقيت أذكى من هذا الرجل ذكاءً ، ولا أحدَّ ذهناً .

لقد كان جودة بك عالماً بالرياضيات ، هضمها (كما يقولون) هضماً ، وقتلهــا فهماً ، واحسن فيها تعليماً وتفهيماً ، وأعانه على ذلك سكوت الطلاب في درسه ، واستماعهم لقوله ، فأفاد واستفاد .

---

١) راجع البحث في صفحة ١٢٣ من هذا الكتاب .

اما مسلّم بك ، فقد كان عبقرياً من أفذاذ الرجال .

كان ضابطاً كبيراً من اركان الحرب. وكان من أعلم الضباط بفنون العسكرية ، وكان استاذاً في العلوم بفروعها كلها ، استاذاً في الكيمياء يرجع اليه مدرسوها في معضلات مسائلها ، لا يتكتمون ذلك عنا ، ولا يخفونه علينا ، استاذاً في (الطبوغرافيا) ، استاذاً في علم الموسيقى ، وكان يعرف الفرنسية ويُدَرّسها ، والتركية وكان اديباً فيها ، والألمانية وكان يتقنها .

ولكنه كان (والحق يُقال) كان على هذه المزايا كلها ، بعيـــداً عن التوفيق في التدريس ، عاجزاً عن ضبط التلاميذ ، له في الفوضى نوادر عجيبة ، لا يزال الأحياء من تلاميذه يروونها عنه .

لقد كان اكبر من ان يكون مدرّس مدرسة ثانوية ، فعجز عن الهبوط الى (مستوى) عقول التلاميذ ليفهمهم ، وعجزوا عن الصعود اليه ليفهموا منه ، فبقي بينهما فراغ ، ملؤوه بالشغب والضجيج وافساد الدرس .

٥

هؤلاء كانوا اساتذتنا : المبارك للدين ، وان كانت دروسه في الواقع للدين والدنيا ، والعلم والعمل ، والجد والهزل ، وما يُقال في الدرس عادة ، وما لا يُقال ...

والجندي للعربية ، عنده العلم الغزير ، وعنده جواب كل سؤال ، وحل كل مشكلة . ولكن ليس عنده ما يغري التلاميذ بالإقبال عليه ، والإصغاء اليه ، فهو يقعد على كرسيّه لا يقوم عنه ، وما قعد المبارك على الكرسي قط ، ويلقي درسه بصوت خفيض ، بلهجة واحدة كدت اصفها بأنها مملّة ، والمبارك يُفَخّم ويُرَقّق ، ويَجْهَر ويُخَافت ، وله صوت اذا خَافَتَ به اسمع كل من في المدرسة !

وكان الجندي ، على هذا ، إمام الأئمة ، واستاذ العصر . اما الداوودي والبزم ، فما قرأنا عليهما .

وجودة الهاشمي ومسلّم عناية للرياضيات .

والدكتور جودة الكيال ، والدكتور يحيي الشمّاع للعلوم ، وهي تجمع الفيزياء[1] ، والكيمياء والتشريح والنبات والحيوان وحفظ الصحة .

---

١) وكان اسمها عندنا (الحكمت) ، هكذا بتاء مبسوطة .

فلما سافرا الى اوربة لإتمام دراستهما سنة ١٩٢٤ او ١٩٢٥ لم أعد اذكر ، جاءنـــا الدكتور عزة الغبراء ، والدكتور صبحي راغب يدرّسان في غيابهما .

وكان الأستاذ حسن يحيى الصبان يدرّسنا التاريخ ، والدكتور كامل نصري يدرّسنا الجغرافيا . وكان الدكتور نصري مديراً ثانياً (معاون المدير) . ثم حل محله الأستاذ عبد الفتّاح ملحس رحمه الله ، ثم الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني شيخ المعلمين ، وابن شيخ المعلمـــين . رحم الله أباه شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ، وبارك في استاذنا عبد الرحمن الذي مدّ الله في حياته حتى رأى من تلاميذه من بلغ الثمانين .

واشهد لقد علّمونا الدين والخلق ، كما علّمونا العلم ، وأفادونا بثمرات تجربتهم في الحياة ، مثلما أفادونا بدروسهم ، وكانوا لنا آباء قبل ان يكونوا معلمين .

وكان من معلمينا الذين لا يُنْسون : الأستاذ عبد الوهاب ابو السعود ، وكان يعلمنا الرسم ، وما كنا نبالى بالرسم ، ولا نقيم له وزناً ، ولا كان القائمون على التعليم يَعْدِلُونَه بالعلوم التي يدرّسها غيره من الأساتذة.ولكن عبد الوهاب يضطر جليسه أن يُبَالِيَه، وان يلتفت اليه، فكيف بتلميذه ؟ لقد كان أحد رُوّاد (التمثيل) الأوائل ، فكان يلقي درسه (وما درسه ؟) كأنه رواية (درامية) على المسرح ، فما ظنك برواية تُمَثَّل في الصف .

واذا كان الكلام يجرّ الكلام ولو لم يكن من جنسه ، فمن الإنصاف أن أذكر رائداً آخر من روّاد الرسم ، غدا اليوم مجهولاً ، وقد كان في أيامه من الأعلام، وهو ضابط قديم ، جسيم وسيم، علّمنا كيف نرسم الأشياء، ونقيس أبعادها ، ونضع الظلال، ولا تزال عندنا بقية صالحة مما علّمناه من نحو نصف قرن ، هو (عبد الحميد عبد ربه) رحمه الله .

ومن رواد التمثيل السابقين الدكتور أسعد الحكيم عضو المجمع العلمي العربي ، وقد ألّف لتلاميذ المدرسة الكاملـــية روايتين وأخرجهما . احداهما (دمنة الهندي) والأخرى نسيت اسمها . وكان لتمثيلها ضجة في دمشق ، وانكرت ذلك مجلة الحقائق ، وجمعت الفتاوى من (المشايخ) على تحريم التمثيل ، ومن أراد الوقوف على أدلتهم التي ساقوها ، فليرجع الى المجلّد الثاني من هذه المجلة ...

وتبعه بعد اكثر من عشر سنين رائد آخر ، كان يؤلّف الرواية ، ويعلّم التلاميذ تمثيلها وكان له صديق من المحامين يخرجها ويصنع المسرح والثياب من بـــالي الخرق ،

ورخيص الورق ، فيأتي بالمدهشات ، وهذا الرائد هو كاتب هذه المقدمة ، وصديقه هو المحامي أحمد حلمي العلاّف رحمه الله . وقد مُثِّلَتْ لهما على مسرح المدرسة الأمينية خمس مسرحيات ، وعلى مسرح المدرسة التجارية مسرحية طويلة عن (عنترة) ، وكانت كل رواية تُعرض مرات كثيرة ، ويتحدث بها الناس أياماً طوالاً .

وكان يعلّمنا الفرنسية أول الأمر ، فرنسي عجوز أعرج ، طويل اللحية ، أحمق ، رخو . لا يضبط صفاً ، ولا يصغي الى درسه أحد ، وكان يسكن الدار المواجهة للمدرسة ويتحمل أذى التلاميذ صابراً . واسمه المسيو ميشيل .

ثم جاءنا مدرّس لبناني الأصل ، قصير القامة ، غريب الشكل ، له شاربان دقيقان ، يخرجان من تحت منخريه ، ويمتدان الى الأمام ، كأنهما رجلا عنكبوت ، وكان يتكلم الكلمة بالفرنسية ويلحقها بترجمتها بالعربية ، بصوت ثاقب ، بنغمة ممطوطة ، ولم يطل بحمد الله مقامه بيننا .

ثم جاءنا (تريس) Tresse وهو استعماري جاهل ، يبدو أنه من أجلاف الريفيين الفرنسيين ، لا يفقه شيئاً ، ولا يحسن تعليماً ولا تفهيماً . ثم جاءنا الرجل الفاضل النبيل شكري الشربجي ، فأفادنا وعلّمنا . وكان يعلّم في الصفوف الأخرى ، المسيو علي الجزائري ، والمسيو صالح التونسي ، اما المسيو علي ، وكنا نلقّبه بهذا من أيام الشريف فيصل ، فهو رجل رقيق الحاشية ، حَيِيّ الطبع ، مهذّب اللفظ ، توفي رحمه الله من سنتين . اما المسيو صالح ، فكان بديناً عظيم الشاربين ، جهير الصوت ناري الطبع . وكان يؤلّف الجملة الواحدة ، من كلمات عربية وكلمات فرنسية ، فيقول مثلاً : chacun يقعد في بلاسه ، واللي يحكي نعمل له الـ punition . وكانت لهجته مغربية . اخرج مرة تلميذاً الى اللوح ليترجم فقال له : (مَلْكْ عَطْشْ مَلْقَامَا) اي : (ملك عطش ما لقي ماء) وسكّن حروفها كلها ودمج كلماتها دمجاً ، ووصل اوائل تواليها بأوائل أواخرها ، فما فهم التلميذ ، فغضب وقال : (نكلموك بالعربي ما تفهم ؟ !)

وكان يعلّمنا الموسيقى الأستاذ مصطفى الصواف ، أمـا الأساتذة الشباب فقد ادركنا اثنين منهم ، وكنا في اواخر السنة الأخيرة ، الدكتور صليبا (مدرّس الفلسفة وكان يدرّسها قبله الأستاذ سعيد البحرة) والأستاذ الفصيح . وقد صحبناهما شهوراً كنا نحن فيها في اواخر طريق التعلّم ، وهما في أوائل طريق التعليم ، وما رأينا من قبلهما استاذاً شاباً مثلنا . ما كنا نرى الا شيوخاً او كهولاً كالشيوخ .

وكان في المدرسة معيدان : الأول عاصم بك البخاري ، والثاني عزة أفندي الرفاعي ، هكذا كنا ندعوهما . وأشهد ان للأستاذ الرفاعي فضلاً على الرياضة في دمشق ، لا أجد اليوم من يذكره أو يشكره ، فهو الذي بعث الله على يده الروح الرياضية بعد ان ماتت ، وهو الذي نشأ على يده أكابر أبطالها ، رفاقنا : محمود البحرة عبقري الرياضة ، وحسن الهاشمي ، واحمد سامي السمّان بطل القفز العالي رحم الله الجميع .

أقام لنا في رَحْبَة متروكة كانت وراء المطبخ ملعباً كامل العدة ، من غير شيء ، لفّقه من شبه العدم فجعله صالحاً لتخريج هؤلاء الأبطال .

لقد استرسلت في الحديث ، والحديث طويل.ولو كتبت كل ما اعرف عن مكتب عنبر لما اتسعت له هذه المقدمة ، بل لضاق عنه أضعافها .

لقد كان مكتب عنبر مثابة العلم ، وكان موئل الوطنية ، وكان مصدر الحركات الشعبية ، ومبعث النضال ، ولقد كُتبَ لي ان أقوده في يوم من أعظم أيام نضاله ، وإن نفسي لتراودني أن أقص قصة ذلك اليوم ، ويردّني ان الأستاذ المؤلّف كلّفني تقديم كتابه ، ما كلفني الحديث عن نفسي ...

... ولكن هل أتحدث عن نفسي ؟ اني أروي صفحة من صفحات كتاب(مكتب عنبر) وهل الكتاب الا قصص من كان فيه ، ومن مرّ به ؟ او لم يقل فيكتور هوغو : « أنا حين أصف آلامي أباً ، أصف آلام كل أب ، وحين أصور عواطفي في الحب ، أصور عواطف كل محب» ؟ أو لعل قائلها غير فيكتور هوغو ، أو لعله قال شيئاً غير هذا ، فما أريد الاستشهاد بشهرة القائل ، بل بصحة القول .

ثم ان المقدمة ستكون بين يدي أخي الأستاذ ظافر ، فاذا رآها طالت ، أو رأى هذه القصة أولى بها الطيّ ، فله ان يطويها ولا ينشرها .

لقد أمضيت ست سنين في (مكتب عنبر) منفرداً متحداً[١] ، أصادق الأخ والأخوين ، لا أنغمس في الحياة الاجتماعية للطلبة ، ولا أشارك في جمعية رياضية ولا فنية ، ولم أدخل حزباً من الأحزاب ، وكان الانتساب الى الأحزاب شائعاً بين الطلاب قبل الثورة ، يوم كان في الشام حزبان وطنيان فقط ، هما حزب الشعب ، وحزب الاستقلال . ثم امسكت الكتلة الوطنية الزمام ، فكان الطلاب يصدرون عن

---

١) المتحد : المتوحد المنفرد .

رأيها ، وينفـّذون مقرراتها . وكنت في معزل عن ذلك كله ، حتى أني كنت أعتذر عن حضور (السيران) السنوي التقليدي ، وكان من العادات المتبعة ، أن يشترك الأساتذة والطلاب جميعاً فيه ، وكان موضعه الذي لا يتغير قهوة الربوة ، وطعامه الذي لا يتبدل (صفيحة وشعيبيات) أو (قوزي) عليه خروف كامل .

بل لقد زدتُ على ذلك فكنت لا اضرب يوم الإضراب ، ولما كان الإضراب المشهور يوم زيارة (بلفور) دمشق سنة ١٩٢٥ (على ما أذكر) ذهبت وحدي الى المدرسة ، ودخلت وحدي الصف ، ولم أخرج حتى أخرجني الأساتذة . وعلى شفاههم ظلال الاحتقار لي ، لمخالفتي اخواني — وما فعلت ذلك عن عمد، بل كنت لانفرادي، لا أحسّ بما كان من حولي .

لم أخالف ذلك طول ايامي في التجهيز الا مرتين ، دعيت فيهما الى القاء قصيدتي شوقي والزركلي ، في الثورة ، (سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ) و (ٱلأَهْلُ أَهْلِي وَٱلدِّيَارُ دِيَارِي) فألقيتهما في جماعة الطلاب ، ولما وصلت الى قول خير الدين :

وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلآلافِ مِنْ بُسَلائِهِمْ   يَغْزُوهُمُ مِئَةٌ مِنَ ٱلثُّوَّارِ

بلغت بي الحماسة مبلغها ، فثرت وأثرت ، وسمع المدير (جودة الهاشمي) رحمه الله ، فجاء وأشار اليّ ان أتم ، ووقف يسمع ، ولم يأتني منه سوء، وكان ذلك في غمرة الثورة ، والمعارك تقع من حول المدرسة ، وربما دخلها الثوار احياناً .

بقيت على هذه العزلة ، الى الصف الثاني عشر . فجئت يوماً، وكان اليوم الخامس عشر من شعبان فَخُبِّرْتُ إن أخواننا الطلاب الليليين أرادوا الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، فمنعهم المراقب ، فعصوه وشغبوا عليه ، وسهروا محتفلين ، فقرر طرد جماعة منهم ثلاثة ايام ، منهم أخونا أنور العطار ، ومرّ الخبر كأن لم يكن ، ودخلنا الصفوف ، وانتهى النهار ورحنا الى دورنا ، ولم نبال بما كان ، لا أنا ولا غيري ، لأن العقاب طفيف ، والسبب هيّن ، والاحتفال بليلة النصف من شعبان ، لم يأمر به الدين ، ولم تجر به السنّة .

ونمت في موعد منامي ، لا افكـّر فيما كان في المدرسة ، حتى اذا كان قبيل الفجر فاذا أنا أحسّ بفكرة تسيطر عليّ ، بلغ من قوتها ان أيقظتني من منامي ، هي ان أذهب

الى المدرسة صباحاً ، فأنتظر قرع الجرس للدرس ، فاذا قرع وقفت على واحد من هذه المقاعد التي تحيط بالساحة فخطبت خطبة مجلجلة أدعو فيها الى الإضراب ، أو يُعاد من طرد من الطلاب .

وبقيت قاعداً أرقب طلوع النهار . فما كاد يطلع حتى وليت وجهي شطر المدرسة ، ولم يكن لي أب أستأذنه ، وليس لي أخ أكبر مني أستشيره ، فكنت أصدر عن رأي نفسي وحدها . ووجدت باب المدرسة مغلقاً، فمررت برفيقنا في الصف محمد الجبر ودي (الأستاد النقيب) وكان يسكن في دار عند عيادة الدكتور بيازيد ، فأمضيت عنده ساعة ، وخضت في كل حديث ، ولكني لم أعرج على ما في نفسي ، ولا أشرت اليه ، وذهبنا الى المدرسة ، فلما قرع الجرس ، وهمّوا بالدخول وقفت فخطبت ، وهيّجت وحمّست ودعوت الى الإضراب ، فاستجابوا جميعاً ، وما كان الفضل في الاستجابة لما ألقيت عليهم ، بل لما كان من القوة في أنفسهم ، فقد كانوا يلبّون إنْ دُعوا بهمسة يقولها قائلها ويختبئ ، فكيف وقد دعوا (لأول مرة) بخطبة معلنة ، يلقيها صاحبها ويقف ؟

ذلك انها كانت ايام نضال ، كان يحكمنا فيها من ليس منا ، وكانت الثورة السورية قريباً عهدها ، وكانت الامة كلها ، كالجنود في الثكنة ، ينامون على استعداد ، ويقومون على استعداد ، لا يسمعون نفخة البوق او صوت الداعي ، حتى يفزعوا الى أسلحتهم ، ويهبّوا سراعاً الى صفوفهم ، فلا ترى البلدة هادئة مفتحة أسواقها ، حتى تسمع من كل دكان صوت الغلق ينحدر ، وترى المظاهرات قد قامت ، ودبابات الفرنسيين قد نزلت ، والمعارك قد ابتدأت .

لم يكن (مكتب عنبر) في الحقيقة مدرسة ، بل كان يومئذ مجمع الشباب المثقّف ولب البلد ، ومصدر كل حركة وطنية ، وكانت الاضرابات تُعَد في الخفاء لئلاّ يُعرف من دعا اليها فيعاقب . فلما رآني الطلاب أجهر وأعلن ، لا اختفي ولا أتوارى ، عجبوا مني وأُعجبوا بي ، وصرت في لحظة زعيم المدرسة !

وجربت الادارة الترغيب والترهيب ، ولجأت الى التهديد والوعيد ، فخرج المعيد اولاً ، ثم نزل المدير الثاني ، ثم المدير الاول والأساتذة ، فكنت أرد على كل محاولة بخطبة جديدة فوجدوا الامر أصعب مما كانوا يقدرون ويعرفون فخبّروا الوزارة .

فجاء الوزير بنفسه ، وكان استاذنا الكبير كرد علي رحمة الله على روحه ، فلما دخل علوتُ على المقعد الذي اتخذته منبري وناديته : يا معالي الوزير ! فتجاهل ومضى قُدُماً ،

فأعدت النداء ، فما وقف ، فأسمعته كلاماً استوقفه ، ثم حوّل وجهه اليّ ، فسمع مني وأجابني .

وكنت يومئذ في فورة القدرة على الخطابة والارتجال ، لا احتاج الا الى ابتداء الكلام حتى تنثال عليّ المعاني ، وتزدحم الخواطر ، وينطلق اللسان ، يعبّر عنها ببليغ البيان ، وكنت أعيش مع الأدب العربي الصافي ، لم تفسد ملكتي هذه الأساليب الجديدة ، وكنت فتيَّ الذاكرة ، كثير المحفوظ ، لم تضعف ذاكرتي الأيام ، فكانت كل خطبة كأنها قطعة أدبية من الأسلوب الفحل ، تفيض بالآيات والشواهد والأمثال . فضعف مع الأيام جناني ، وكَلَّ لساني ، ولم يبق مني الآن الا ما يبقى من المصارع العجوز ، ولا يدوم على ما هو الا هو .

على أن فيَّ بحمد الله بقية (لا تزال) تسر الصديق ، وتكبت العدوّ .

ودخل الوزير ، فاجتمع بالمدير والأساتذة ، ثم خرج شيخنا المبارك رحمه الله ، فوقف على المقعد واستهل خطبته بقوله (الآن أُعْطِيَت القوسُ باريها ، وأسكنت الدار بانيها ، فعودوا الى دروسكم ، وارجعوا عن غَيّكم ، واني لكم ناصح امين) . وكان بين الطلاب فتى صغير اسمه نور الدين القاسمي ، رحمه الله ، أحسبه ابن عم للمؤلّف ، فصاح : لا ندخل ، وردد الطلاب صيحته ، فاهتاج المبارك وقال : يا كاظم ، افتح الباب وكان كاظم ألبانياً صالحاً ففتح الباب ، وخرج الطلاب .

انطلقت العفاريت من القماقم ، ونفذنا من القباقبية الى المسكية ، فباب البريد ، فأخذت سلّماً صغيراً ، كان امام دكان ، فارتقيته وخطبت في الناس . فوثبوا الى الأغلاق ينزلونها ، ويلحقون بنا ، فلما وصلت الى سوق الأروام خطبت فأغلق التجار دكاكينهم ومشوا معنا ، فما وصلنا الى المرجة حتى كانت البلد كلها وراءنا ، وصار كل طالب قائداً لجماعة من الناس ، وكان من اوائل من أعانني ذلك اليوم رفيقنا حسن مراد (المحامي الكبير) ، لم أره من ثلاثين سنة ، ولكني واثق أني حين أراه ، ينهار هذا السدّ الذي أقامه بيننا الزمان ، فأحسّ أني فارقته بالأمس ، ولقيته الآن ، وكذلك تصنع أُخوَّة الصبا ، ورفقة الصغر .

وقد كتب اليّ من سنين في ذيل بطاقة تهنئة بالعيد : (هل تذكر) ؟ ولم أجبه لأني وجدت السؤال لا يحتاج الى جواب .

هل أذكر ؟ نعم أذكر يا اخي حسن ، وهل تظنني أنسى رفاق صباي ؟

وصرت انا القائد لهم جميعاً ، حتى بلغنا (السراي) وأحطنا بهـا كما يحيط الجيش المهاجم ، بالقلعة المحصورة ، وعلوت درج العمود التذكاري ، فخطبت خطبة كلماتها من نثار الحِمَم ، واسلوبها من هبة العواصف ، مجّدت فيها الحرية ، ولعنت فيهـا الاستعمار ، وأعدت فيها ذكر الثورة ، وقلت ما يقوله شاب متحمس هائج ، وهتفت هذه الحناجر هتافاً ارتجت منه الأرض ، وزلزلت أركان القصر ، فبرز من الشرفة رئيس الحكومة (وكان الشيخ تاج الدين) فتكلم مهدئاً واعداً ، وتفرّق الجمع ، واجتمع عليّ نفر من رجال الأحزاب والجماعات ، كل يريد ان يجذبني اليه ، ويجعلني من حزبه ، ونصح لي ناصح ان اجتنبهم جميعاً ، واعود الى دروسي والي عزلتي ، وكيف تعود الصخرة التي كانت مستقرة في قمة الجبل الى مكانها بعد ما دحرجتها فهوت ، من يستطيع ساعة انحدارها ان يقف سيرها ، ويقوم في وجهها ؟

لقد اسكرني هذا الفوز فكدت أتدحرج فأنحدر في هذا الطريق، لولا أن تداركني الله فأراني عاقبته ، لقد اغتررت بالحلاوة في أعلى الكأس ، فأذاقني الله طعم المرارة في أواسطها وفي قعرها .

لقد امسكت بي الشرطة فأودعتني سجن النظارة ، فاذا انا منفرد في حاشرة (زنزانة) طولها متر وعرضها متر ، وحيد فريد ، ليس حولي من اخطب له ، ولا من يصفّق لي ، ولا استطيع ان اضطجع فيها ولا ان امد رجلي ، وليس من حولي الا جدران مغلقة ليس لها نافذة ولا معي فيها احد ، فكدت اجن ، ورحت اصيح فـلا يرد عليّ الحارس جواباً ، واضرب الباب حتى كاد يتمزق جلدي وتدق عظامي ولا اجد لذلك نفعاً — فقعدت افكّر .

كنت في اول النهار ، طالباً مغموراً ، يمشي في جماعة الناس ، لا يعرفه احد فيضره او ينفعه ، فما جاء الظهر حتى صرت علَم البلد ، وأضحيت ملء الاسماع والابصار ، فما امسى المساء حتى كنت سجيناً ذليلاً ، مسلوب الحرية ، معرّضاً للأذى .

هذه هي حياة السياسيين المغامرين ، يوم في الذروة ويوم في الحضيض ، يأكلون (السبت) البقلاوة ، ولا يجدون (الأحد) الا الخبز اليابس .

انهم كالذي يحتل مقعداً في الصف الأول من المسرح ، انه اكبر ، والمنظر منه اجمل ، ولكن ليس له رقم ، ووراءك من ينتظر غفلة منك لينتزعك منه ، ويقعد فيـه

دونك ، أفليس خيراً منه مقعد في زاوية ، (مرقم) لا ينازعك فيه أحد ، تقوم منه وانت واثق انه لك تستطيع ان ترجع اليه .

وقررت في تلك الساعة ، ان اجتنب حياة السياسيين ، وألا اشارك فيها الا من بعيد ونفذت هذا القرار .

•

وبعد ، فلقد كتبت هذا الذي قرأتموه من المقدمة وانـــا في دمشق ، في بلدي ، بين أهلي وولدي ، وانا رخيّ الحال ، ناعم البال ، أكاد من فرط الراحة أشكو الملال ، وهأنذا اختمها وانا بعيد ، بعيد بجسدي عن دمشق ، تفصل بيني وبينها بوادي الحجاز ورمال نجد ، بعيد عن مكتب عنبر تفصل بيني وبين أيامه سنون طوال ، تكاد بعـــد قليل تبلغ الأربعين ...

... فأين أنت يا مكتب عنبر ؟ رحم الله ايامك .

اين انت يا عهود الصبا ، ويا مراتع الاحلام ؟ تعالي انظري ماذا صنعت الأيـــام بتلك الأحلام .

ولقد زادني شجناً على شجن ، صفحةُ الإهداء التي بعث بها اليّ اخي المؤلف الأستاذ ظافر .

انك لا تدري يا اخي ظافر ماذا صنعت بي هذه السطور .

لقد انتزعتْ قلبي من صدري ، فعادت به الى بيوت دمشق ، يا اسفي عـــلى تلك الجنات ، على تلك (الصحون) التي يبسم في ارضها المرمر ، ويضحك في (احواضها) الزهر ، ويتربع في جنباتها الشمشير ، وتتخطر من حول بركتها صبايا الليمون والنارنج ، ولها من ثمرها مثل نهود الصبايا ، والياسمين المطيف بأغصانه من حول الإيوان ، والمَلِّيسا المتعلقة خشية السقوط بالجدران ، والدوالي التي تتمدد على السطوح ، تعمل النهار ، تستمد من حرّ الشمس ما ينضج الثمر ، وتستريح الليل لتحلم في ضوء القمر ...

على تلك (المربعات) و (القاعات) و (الفرنكات) و (المصبات) ، على ذلك الفنّ الشاميّ الاصيل ، الذي قفز من فوق البحر ، فوصل الشاطئ الغربي في اسبانيا ، بالشاطئ الشرقي في الشام ، وحمل عبقرية العمران ، الى بلاد المغرب والإسبان ، فامتلأ بسحرها كل مكان ، وبقيت فيه الى الآن ...

على دارنا وداركم ، على (مكتب عنبر) الذي كان جنّة من جنّات الشام . وما كلفي من تلك المنازل بأرضها وجدرانها ، ولا بسقوفها واركانها ، ولا بصحنها وايوانها ، ولا بوردها وريحانها ، ولكن لهفي على من غَبَرَ من سكانها ...

تلك يا اخي مرابع صبانا ، واين مني تلك المرابع ؟ سقى الله ايامها ، اين ، وبيني وبينها البيد والصحارى ، وبيني وبينها عمر ، تقضّى أكثره ولم يبق منه الا الأقل ، وحياة كان اجمل ما فيها تلك الأيام العذاب ؟

هذا يا اخي المكان ، فأين السكان ؟ اين اهلي واهلك ، اين مجلس ابيك في قاعة درسه ، ومجلس ابي ، اين المدرّس واين التلاميذ ؟ واين اولئك النساء ، اين صخب حديثهن ، وقرع قباقيبهن على مرمر الدار ، وتجاوب ضحكاتهن في ارجائها ؟ اين الأولاد ومرحهم وعدوهم ، وتراشقهم بماء البركة ، وتسلقهم عرائش الدوالي ؟

لقد تفرّق الشمل المجتمع ، وخلا المكان المزدحم ، لقد اخذتهم يد الموت واحداً بعد واحد .

و (بقيتَ وحدك بعدهم ، تعيش في الماضي على قصره ، أكثر مما تعيش في الحاضر على طوله) .

مَا فِي الدِّيارِ مُخَبِّرٌ إلاّ صَدًى لِمُصَوِّتِ
نَادَيتُ أَيْنَ أَحِبَّتِي فَأُجِبْتُ : أَيْنَ أَحِبَّتِي

ناديت : أين أحبتي ؟ فأجبت : أين ؟

هل تصدّق يا اخي ظافر اني وقفت عند هذه الجملة من صفحة الاهداء ساعة كاملة ، معجباً مفكّراً معتبراً .

ذكرتَ من مضى من اهلك ، فأذكرتني من مضى من أهلي ، وحننت الى ماضيك ، فأثرت في نفسي الحنين الى ماضيّ ، فجمعت عليّ غربة المكان وغربة الزمان ، وحملت روحي الى دمشق ، واعدتني الى ايامها المواضي ، فتركتني أعيش في نجد جسداً بلا روح ، وأحيا في الحاضر شبحاً بلا قلب .

ولا غرو فالأسى يبعث الأسى ، كما يقول الشاعر العربي ابن نويرة ، وكل من في المآتم يبكي ولكن يبكي على امواته كما يقول الفيلسوف الانكليزي سبنسر .

قولة الحق يا اخي ظافر ، لقد كنت موفقاً في تأليف الكتاب ، وكنت عظيماً في كتابة (الاهداء) ، وأنت أوفى ابن عظيم لأبيه ، وتلميذ معهـــد لمعهده . ولئن بقيت وحدك بعد الأب والأم ، والأخ والعم ، فلقد بقوا كلهم فيك ، وما يتقوّض بيت كنت عميده ولو ذهب عميده ، ولقد لبث بيتهم بك مفتوحاً ، وذكرهم بك سارياً ، وعزّهم بك قائماً ، وما مـــات من خلّف مثلك ، رحم الله أباك الرجل العظيم ، واخاك النابغة المجاهد ، وعمّك الفاضل النبيل ، وأطال عمرك ، ونفع بك ، وأمتع بأدبك .

علي الطنطاوي

في الطريق ...

الى مكتب عنبر

كنا نستيقظ ونحن أطفال ، في الصباح الباكر . وكثيراً ما كانت تقع على عاتق الأطفال أعباء ، قبل ذهابهم الى المدرسة ، منها ما هو داخل البيت ، ومنها ما هو خارجه . واكثر ما كان يشق علينا ، هو تدارك الخبز الضروري لطعام الصباح ، ولا سيما في أيام الشتاء ، فما كان الخباز في تلك الأيام يمر على الناس في بيوتهم ، ليعطيهم حاجتهم من الخبز ، وانما كان الناس يعجنون الطحين مساء في دورهم ، واذا كانت الأسرة وافرة العدد ، فان عملية العجن تتكرر في كل مساء ، أو مرة في كل يومين . وكان الأهل يقتطعون من (العجنة) قطعة في الصباح ، يضعونها في طست ، ويعطونها الى أحد الصبيان ليذهب بها الى الفرن ويخبزها ويعود بها وتأكل منها الأسرة . كان هذا اغلظ ما يكلف به الصبي أيام الشتاء ، وكثيراً ما وقع من اجله خلاف بين الصبيان ، اذا تعددوا في البيت الواحد . فقد كانت العادة أن يتناوب الصبيان هذا العمل الشاق . وربما كان بعضهم أمكر من بعض ، فتهرّب من القيام بما عهد به اليه ، وألقى العبء على غيره . وربما حرد الصبيان جميعاً ، فبقيت الأسرة بدون طعام في الصباح ، ما لم يتداركها ربّها نفسه احياناً ، أو ربّتها نفسها حيناً . ولهذا المشهد القديم في نفسي آثار عميقة لا تزول. فقد كان هذا العمل موحشاً حقاً ، لأنه كان يقع غالباً في وقت لم تشرق فيه الشمس ، وأنوار البلدية ، على خفوتها وضآلتها ، قد اطفئت ، وكثيراً ما كان الفرن بعيداً عن البيت ، والمطر منهمراً ، والطريق موحلاً ، وآثار النوم ما زالت عالقة في الأجفان ، لم يبلغ الصحو مبلغه في الجسم ، حتى اذا وصل الى الفرن ، لم يأبه الفرّان وصنّاعه له ، لانه طفل ، ولانه لم يكن وحده طالب الحاجة . وقد يكون قد سبقه غيره من الصبيان، وربما روعي الترتيب، وربما جامل الفرّان فقدّم المتأخر ، واخّر المتقدم،

والصبي في هذا كله على مثل جمر الغضا ، لا يصدّق متى تقضى حاجته وينصرف . وهو في انتظاره هذا قلما كان يسمع ألفاظاً مهذبة ، أو قصة نافعة ، فعمّال الفرن قد يتحدّثون ، ولكن بأساليبهم ولغتهم وفي شؤونهم ، وأين هذا مما عهده الصبي في البيت أو في المدرسة ؟ فاذا ما جاء دور الصبي ، كان عليه أن يكون يقظاً ، مفتّح البصيرة ، يعدّ قطع العجين ، ويشرف على ادخالها الى بيت النار ، وعلى اخراجها منه ، لئلا تنقص واحدة ، لقد نبّهه اهله الى الحذر من الخديعة . فاذا ما خرجت الرغفان من بيت النار ، أخذها وانطلق مهرولاً الى الدار ، فما زالت أمامه أعمال أخرى : لا بد له من الطعام ، ومن ان يلبس ثيابه ، ومن أن يجمع حوائجه المدرسية . وويل له اذا فقد شيئاً منها ، أو ضاع بين حوائج اخوته او ابناء عمومته ، فقد كان الناس يتساكنون ، ويتعايشون ، لا كما نرى في هذه الأيام . وألف ويل اذا ضاعت (الوظيفة) ، او ادّعى ضياعهـا ، فعندئذ تنطلق عبراته من جفنيه ، ولا حيلة للأهل في هذا الا الحسرة والألم . واذا وجد في البيت من يحسن كتابة سطر أو سطرين ، تناول القلم وسوّد كلمات في الاعتذار عن الصبي الى الأستاذ او المدير . ولا أنسى ابداً ان الفرّان قـد أهملني ذات يوم ، وكلما توسلت اليه ان ينجز خبز عجيني انتهرني ، فأدّى ذلك الى تأخري صباحاً ، فبكيت . وقد اشفقت عليّ شقيقتي ، وكانت على صغرها تجيد الكتابة ، حسنة الخط ، فجلست على درجة ، واخذت القلم الرصاصي بيدها اليسرى ، فما كانت تحسن الكتابة باليمنى ، ثم وضعته في فمها ، واخذت تكتب : (نرجو غض النظر عن ولدكم لتأخره) . ولقـد اعتبرت هذه الورقة امراً للأستاذ بقبول المعذرة فرضيت ، واذا كانت هذه الورقة قد أنجتني من العقوبة ، فانها لم تنجني من التأنيب !

كنت انطلق من البيت في السابعة والنصف تقريباً . وكان بيتنا في زقـاق المكتبي ظاهر باب الجابية ، فأمضي سالكاً هذا الطريق العتيق ، المليء بالأوحال ، فاذا ما وضعت رجلي احسست كأنها غاصت في مستودع للغراء ، فأجهد في نزعها ، وبقاع الطين تتطاير على أثري ، فتلتصق على ظهر معطفي ، وربما وصلت الى مؤخرة عنقي . واقبح ما كان يؤذينا هذه الميازيب المتدلية من اعلى السطوح ، التي ترش ماءهـا في الطريق الضيّق ، فلا يستطيع المرء محاذرة اذاها . فاذا ما اجتزت جامع حسان والقباحين وباب الجابية ، ووصلت الى مدخل السكرية ، اعتبرت انني قد وصلت الى منطقة الأمان ، لأن الطريق مسقوف ، فلا حاجة لي الى وقاية من المطر والميازيب ، ولكني انتقل الى حذر اكبر ، هو الخوف من الانزلاق ، لأن الطريق من اول السكرية حتى

(الخراب) طيني ، فاذا ما هطل المطر ، وتسربت بعض القطرات اليـــه ، اضحى كالصابون ، في بعض مواضعه ، واليوم أتصوّر انني كثيراً ما كنت امشي على مثل الشوك .

وفي منتصف الطريق بين البيت ومكتب عنبر ، وعلى وجه التحديد تجاه (نزلة حمّام القاضي) ، كان يقف بائع الهريسة . لقـــد شوّقني ذات يوم ، وكان صدر الهريسة طازجاً قد خرج من الفرن لتوّه ، تنبعث منه رائحة شهية فأغراني بالشراء ، فاشتريت . لقد لذّ لي طعمها ، واضحى نصف (خرجيتي) من نصيب بائع الهريسة . كان يتقاضاني في كل صباح (ابو الخمسين) ، وكنت اقضم القطعة التي يعطيني اياها بقية الطريق ، فاذا ما وصلت الى باب المكتب ، غسلت يدي عـــلى انبوب البحرة التي الى جواره ودخلت .

نصف ساعة الا قليلاً ، كنت اقضيها مشياً على الأقدام ، بين البيت والمكتب ، في اكثر فصول السنة . وقد كنت من المحظوظين ، فلم يكن في مدينة دمشق الا مكتب عنبر واحد ، يأتيه الطلاب من جميع ارجائها ، بعضهم من اقصى المهاجرين ، وبعضهم من الميدان ، وبعضهم من اقصى الأكراد ، ومعظم هؤلاء لا يعرفون ركوب الترام ، ولا غيره . ولم تكن الدرّاجة في ايامنا مألوفة . اما الباصات ، فلم نسمع بها . ولكم سمعت مفاخرة بين الرفاق في قصر الوقت ، وحث الخطى : هذا اجتاز المسافة من (الجـــادة الخامسة) الى مكتب عنبر بثمان وخمسين دقيقة ، وهذا بسبع وخمسين ، وهذا بتسع وخمسين ، وهذا بساعة وربع ، وهذا ... وهذا ...

وقد يتأخر بعض الطلاب . ان عقوبة المتأخر هي ان يوصد (كاظم آغا) الباب الخارجي في وجهه الى ان ينقضي الدرس الاول ويقرع الجرس . فقد كان باب مكتب عنبر يغلق طول النهار ،لا يفتح الا لحاجة ضرورية ، او لقدوم او ذهاب احد الأساتذة او الزوار . اما فيما عدا ذلك ، فالمكتب اشبه بسجن ، من دخله من الطلاب لا يمكن ان يفرج عنه الاّ حين انتهاء الدوام . كانت عقوبة الانتظار على الباب الخارجي من اقبح العقوبات واقساها . ولقد كانت النظرة في ذلك مزدوجـــة : نظر المربون في ذلك الزمان الى ان المتأخر يجب ان يشعر انه قد ارتكب عملاً مخالفاً للنظام ، ونظروا من جهة اخرى الى ان قاعة الدرس مقدسة ، فاذا ما دخلها الاستاذ وجب ان لا يفتح بابها الا حين انتهاء الدرس .

اما في الظهيرة ، فلم يكن يسمح لنا بالخروج لتناول الطعام في الدار . كانت القلة من الطلاب تأتي بطعامها معها ، وكانت قلة قليلة ايضاً ، تأكل في المكتب رغيفاً ثمنه قرش واحد، وصحناً من الحمص ثمنه قرش واحد ايضاً (فتأمل !) كان يصنعه حمصاني قريب . اما الكثرة فقد كانت تعتمد ، اما على الجوع ، واما على القضامـــة . ولست ادري حتى اليوم السر في هذا التعذيب الذي لقيناه مدة اثني عشر عاماً ! ولهذا كان فريق من الطلاب يسارع الى سوق الحميدية ، ولو كان بيته على غير هذا الطريق ، ليتناول حين الانصراف (البوظة) في الصيف ، (والحلابة) في الشتاء . كانت حلقات الطلاب قرابة الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر في هذه المحلات ، لهـــا دويّ كدويّ النحل ، مليئة بالانطلاق والانشراح ، يتحادثون فيها عمّا لقوا في النهار ، ويستعيدون ما وقع فيه بكثير من السرور ، واحلى ما كان يقع في هذه الحلقات ، تآمر الحلقة على احد افرادها في دفع الحساب. كانت تقع نكات حلوة حقاً ، رنينها ما زال بين جوانحي حتى اليوم !

كان لهونا في الفرص بين الدروس محدوداً ، فاما لعبنا بالكرة (الطابة) ، واما لعبنا بالكُجَّة (الدحل) ، واما لعبنا ما كنا نسمّيه (عمود) . أمـــا في الفرصة الكبرى ، فكنت ترى شيئاً اظنه قد انقرض في هذه الايام ، كنت ترى حلقات من الطلاب قد انتظمت ، لتجري منافسة أدبية كنا نسمّيها (مذاكرة انفاس) ، نمتحن فيهـــا قوة الذاكرة . وهذه المذاكرة معروفة ، يفتتحها احد الطلاب ببيت من الشعر ، وعلى منافسه ان يجيبه ببيت آخر من الشعر اوله عـــلى رويّ البيت الذي رواه منافسه . واعترف انني مدين بقسم من محفوظاتي ، حتى اليوم، الى هذه المذاكرات ، اخذتها من افواه الرفاق. ومن لم ينتظم في حلقة المذاكرة ، لعب ما اشرت اليه ، او لعب ما كنا نسمّيه (بيل ، بيل) . وربما رأيت طلاباً قد حملوا كتابهم ، او دفاترهم ، يستعيدون بعض دروسهم .

ولكم عانينا ايام الشتاء قسوة البرد. كان نصيب الصفوف من الحطب محدوداً، وربما سرقناه في بعض الأحيان من المستودع لنتدفأ . اذكر اننا كنا في السنة الأخيرة ، في صف الفلسفة ، وكان البرد قارساً وكان صفنا من قاعات دمشق القديمة التي ملأ الرخام ارضها وحيطانها ونوافذها ، فكنا وكأننا فعلاً في ثلاّجة . دخل استاذنا المسيو (غولميه) Gaulmier ذات يوم — وهو اليوم استاذ في كلية الآداب في استراسبورغ — وكان حراً ، كريم النفس ، دائم البشاشة ، فقال وهو يفرك يديه : هل تشعرون بالبرد مثلي ؟



صورة لبعض طلاب مكتب عنبر في الباحة الوسطى، ويلاحظ فيها الطراز الشامي القديم، حيث يرى طرف البحرة وأحواض الازهار ، وأنواع الاشجار .

قلنا : نعم . قال : لماذا لا تشعلون النار في الموقدة (الصوبا) ؟ قلنا : لقد نفدت حصتنا المقررة من الحطب ! قال مازحاً : اكسروا المقاعد (الرحالي) وأشعلوها .

•

قد تكون هذه اللوحة ناقصة ، وقد تكون هنالك امور قـد فاتتني ، فاخواني الذين عاصروا هذه الحقبة كثر بحمد الله ، وعليهم أعوّل في سد عجزي ، وا كمال نقصي .

ولقد اردت من هذه اللوحة ان ارسم لأبناء هذا الجيل صورة عمّا لقينا في طلب العلم ، ليتعرفوا اليها ، فربما جهلها اكثرهم ، وليقارنوا بينها ، وبين الباصات التي تصل الى ابواب بيوتهم ، فتنقلهم الى احدث الأبنية واحلاها ، فيجدون فيها التدفئة المركزية (الشوفاج سنترال) Chauffage central والحدائق ، والباحات ، والفرق الرياضية ، والفتوة ، ووسائل الايضاح ، وما ادري ماذا ... ترى هل ارتقت سوية العلم بنسبة ارتقاء وسائل تلقينه ؟

ما أحلى أيامك

يا مكتب عنبر !

مكتب عنبر ! ما احلى ايامه ! اني اكاد اقطع بأنها احلى فترة مرت في حياتي ، ذلك انه لم يكن مكتباً لتعليم الفتيان فحسب ،وانما كان مؤسسة قائمة بذاتها ، لها تقاليدها واعرافها ، ولها نظمها وطرائقها . ولأنه كان معقلاً من معاقل الوطنية الصادقــة ، التي شَعَّت من نفوس الأساتذة ، ونبعت من نفوس الطلاب ، والخدم ايضاً ، ولأنه كان يغلق ابوابه على حياة اجتماعية فريدة ، لم تعرف دمشق لهــا مثيلاً ، تمثلت فيها الرحمة والعطف والبر بأسمى معانيها ، ولأنه كان حصناً من حصون الفصحى ، قد لا تسامته اكثر الجامعات والكليات في هذه الايام ، ولان جوّه كان جواً دمشقياً خالصاً ، بكل ما في دمشق من خصائص ومزايا ، ولصفات اخرى قد تأتي في مواضعها من هــذا الكتاب ...

يحلو لي ان اتحدث في هذا الفصل عن جو مكتب عنبر ، وربما تحدثت في فصل آخر عن الوطنية والاجتماعية والفصحى فيه . كان هذا الجو خاصاً ، فقد انتسبت اليه ، والثورة السورية قائمة على اشدها . واليوم اعود بذاكرتي الى هذا الجو ، فلا ارى فيــه معاني الشدة المدرسية ، ولا وسائل الضغط الكريه ، وانما ارى فيه اساتذة لم ينظروا الى طلابهم الا على انهم ابناؤهم ، لا تنبعث من نفوسهم الا الرحمة الخالصة ، رحمة الامهات والآباء (هذان في الدنيا هما الرحماء) . فقد كان فريق منهم من العسكريين المتقاعدين ، الذين قطع الاحتلال الفرنسي الصلة فيما بينهم وبين الجنود ، فوجدوا في الاطفال الذين جاؤوا ينتجعون العلم ابناء ابرياء ، وصبوا كل اهتمامهم لتنشئتهم النشأة الصالحة . كان هؤلاء العسكريون المتقاعدون كرهاً ، آية من آيات الله في الرحمة والشفقة والبر بالطلاب. لقد قضى اكثرهم ، وانتقل الى الملأ الأعلى ، واني لأخط هذه الاسطر ، واشعر ان نفسي

كادت تفيض حناناً على ما لقي جيلنا منهم . وكم كنا نطرب حينما كان احدهم يستطرد في دروسه، فيحدثنا عن ذكرياته الخاصة خلال الحرب العامة الاولى، او قبلها، او بعدها.

مُسَلَّمْ عِنَايَة

كان بعضهم يتقن عدة لغات، كالمرحوم مسلّم عناية، استاذ الرياضيات، الفرنسية والألمانية والانكليزية والتركية والفارسية، ولا اغالي اذا قلت والعربية ايضاً، بالنسبة لذلك الزمان . وكان عصبياً ، خفيف الظل ، دائب الحركة ، قوياً في الرياضيات ، ولا سيما في الحساب الذهني . موسيقياً بارعاً ، يتقن العزف على كثير من الآلات . وكثيراً ما حادث الطلاب ببعض اللغات التي يتقنها . اكثر الطلاب مرة من مناداته : استاذ ، يستوضحون ويسألون ، فتوقف وقال: كفّوا عن هذا النداء . قالوا: ولماذا ؟ قال : لأنكم لو عرفتم من اين اشتقّت هذه اللفظة لما اعجبتكم ، انها مشتقّة من الفارسية ، ومعناها بالفارسية (مُعَقّل المجانين) ! فضحكنا جميعاً ، واستغرقنا في الضحك . كان ضابطاً ممتازاً في الجيش التركي ، وندر ان حاز ايام الترك احد من اولاد العرب لقب (ضابط ممتاز) . وكان بعض خبثاء الطلاب يحاول في بعض الدروس احراجه او ازعاجه ، لما يعلم من عصبيته ، فكان يغضب ، ولكنه كان يرضى سريعاً ، وينقلب رجلاً رحيماً ، رؤوفاً ، شفيقاً باولاده . وعلى انه كان دائرة معارف ، رحمه الله ، كان كذلك جم التواضع ، قليل الادعاء ، ندر ان افتخر بعلمه ، او زَهِيَ بثقافته . وكان غيره من العسكريين المتقاعدين مثله خلقاً كريماً ، وتواضعاً جماً ، وبراً بالطلاب .

اَلْمَشَايِخُ

وكان فريق من الاساتذة من المشايخ ، الذين لم يعرفوا اساليب التربية الحديثة ، ولم يدرسوا في دور المعلمين العليا ، ولكنهم كانوا — شهد الله — ارفع طبقة من الاساتذة

التي علّمت الدين واللغة . غلب على هؤلاء المشايخ روح الاخاء بين الشيخ والمريد ، فكنت تراهم في عمائمهم وجببهم ولحاهم ، اقرب الى قلوب الطلاب من (افندية وبكوات) هذا الزمان ، الذين حملوا عناوين العلم ، وهي الشهادات ، ولا ادري ماذا حملوا من حقائق العلم !

صَالح التّونسيّ

وان انسَ لا انسَ استاذنا النبيل المرحوم صالح التونسي ، وهو — فيما قيل لنا — من افراد العائلة المالكة التونسية ، وقد غضب عليه الاستعمار الفرنسي ، فلجأ الى دمشق . كان استاذاً للغة الفرنسية ، يتقنها كأبنائها ، حافظ على لهجته التونسية الى ان وافته المنية ، واعتاد الطلاب ان يسموه (المسيو صالَح) — بفتح اللام — لانه هو كان يلفظها كذلك . وكانت لغته العربية ضعيفة ، فربما بَرِمَ بما يقول الطلاب ، وربما انكر الطلاب ما يقول بلهجته التونسية ، ولكنه كان يحمل في شرايينه واوردته دم الملوك ، ويحمل في طبائعه اخلاق الملوك ، فما كنت تراه يتهادى ، وهو ضخم القامة ، الى الصف ، حتى ترى الاحترام العميق قد هيمن على نفوس الطلاب ، واخذ استاذهم يأسرهم بعلمه وتواضعه ، وخفة ظله .

بدا لأستاذنا (المسيو صالَح) في احدى السنين ان يحفّظنا قصيدة طويلة باللغة الفرنسية ، فألزمنا بأن نحفظ في كل اسبوع عشرة ابيات منها . ولقد أُنسيت معظمها ، كما أُنسيت قائلها . ولكني اذكر ان فيها معاني رفيعة تتعلق بالدين والاخلاق ، ولا تخلو من عواطف العشق . وكنا يومئذ أطفالاً أغراراً ، في بدء الصف الثامن (الرابع حسب الترتيب الفرنسي) . وكان يختار في مطلع كل درس من دروس (الاستظهار) ، وكنا نسميه (المحفوظات) ، عدداً من الطلاب ليلقوا ما حفظوا امامه ، وامام الطلاب . واختار ذات يوم واحداً من رفاقي ، فاخذ في تلاوة ما حفظ ، بشكل رتيب لم يتغير ، ولم يراع وجوب توافق اللهجة مع المعنى ، ليكون وقع الاداء في نفس المستمع شيّقاً مقبولاً ، فنبهه الى ذلك ، وكان الفتى فطناً ، فاستطاع — جهد طاقته — ان يرضي الاستاذ . فلما وصل الى موضع من القصيدة فيه اشارة الى العشق ، حار الطالب الفتى كيف يتلوه ، وما زلت اذكر ان البيت :

Et Justine d'ailleurs me plaît beaucoup aussi .

واذا باستاذنا رحمه الله يقول بالعامية التونسية (بدهـــا ظحكا وغمزا) وابتسم وغمز باحدى عينيه فعلاً ، واشار بيده ، بعد ان قبض اصابعه ، وبسط ابهامه ، وحرّك يده الى الوراء ، فكان مشهداً من احلى المشاهد التي لا تنسى ، لأنه كان جديداً على (مكتب عنبر) ، لم يعرف له سابقة من قبل ! واذا كان موضوع (الثقافة الجنسية) الذي تلوكه بعض الألسن ، وتعالجه بعض الجامعات ، وفريق من اساتذتها ، في هذه الايام ، مما يثير اهتمام علماء التربية والتعليم في العالم ، فان استاذنا قد فطن الى ذلك قبل اربعين سنة ، بفطرته السليمة النبيلة .

شُكري الشُّربجي

وخلفه استاذنا شكري الشربجي ، مد الله في عمره ، بأدبه الجم ، وتواضعه الذي كان يرفعه في عيون الطلاب ، واناقته النادرة ، التي كانت مثلاً يحتذى ، وعمق فهمه لنفسية الطالب ، وحسن اسلوبه في التعليم ، وتمكّنه المكين من اللغـــة الفرنسية . كان يعلّم الطلاب الأدب ، واسلوب الخطاب ، وحسن المعاشرة ، بما يوجّه اليهم من ألفاظ ، وفي سلوكه معهم[1] .

وكان غيره من الاساتذة كثيرون ، لا يخرجون عن هذا الجو المفعم بمكارم الأخلاق ، فانما انا مُمَثِّل لا مُحْصٍ .

وكان الطلاب يعتبرون اساتذتهم المثل الأعلى في كل شأن ، والأسوة العظيمة التي ينبغي ان يحتذوها ، فما نظروا اليهم على انهم معلّمون يدرّسون المواد التي عهد بها اليهم ليس غير ، بل نظروا اليهم على انهم آباء بمعنى الأبوّة الحقيقية ، يلقّنون العلم ، كما يملون السلوك ، ويهيئون ابناءهم للحياة الحرة الكريمة ، ولصراع فيها قائم على مبادئ الشرف والمروءة والاخلاق .

---

١) راجع الفصل المتعلق بزيارة (دوجوفنيل) لمكتب عنبر في قسم التاريخ السياسي من هذا الكتاب ، ففيه إيضاح لمواقفه الوطنية الرائعة . وقد اختاره الله الى جواره يوم السبت في ١٨ نيسان ١٩٦٤ تغمّده الله برحمته .

وكان بناء المدرسة دمشقياً عتيقاً ، انشأه رجل يهودي اسمه (عنبر) ، فغلب اسمه على اسم المكتب . في البناء باحات ، وفيه بحرات ، وفيه اشجار حمضية ، واشجار تزيينية ، وفيه الاقواس الشامية التي انتقلت الى الاندلس ، فأصبحت طابعها المميز ، وفيـه الايوان ، وفيه الغرف التحتية ، والغرف الفوقية . اتخذت السفلى قاعات للتدريس ، واتخذت العليا مهاجع يرقد فيها الطلاب الداخليون ، وكنا نسمّيهم (الليليين) . وكان الطلاب كافة ، يقيمون في بيوت شبيهة بهذا البناء ، شبهاً قريباً او بعيداً ، فكانوا اذا انتقلوا من بيوتهم الى المكتب ، لم يشعروا انهم قد اغتربوا ، او فارقوا العش الذي نشؤوا فيه . وتلك ناحية ما كنا نعيرها اهتماماً ملحوظاً . اما اليوم فانني اسرّح بصري في هذا الماضي ، فأرى انها من النواحي الهامة التي شاركت في بناء الجيل ، وتكوين نفسيته ، وتشكيل عقله وقلبه .

في هذا الجو نشأنا ، وبين جدرانه ربينا ، وعلى ايدي هذه الفئة من الاساتـذة تعلّمنا . فسقى الله تلك الايام ، وحيّا تلك الربوع ، ومتعنا بعبقها الخالد ، ما طالت بنا الحياة .

المشايخ في مكتب عنبر

١ - الشَّيْخ مُحَمَّد الدَّاوُودِيّ

صيغ منه الرحمة وذلل النحو والصرف

لم يكن مشايخنا الذين ادركناهم في مكتب عنبر اساتذة لغة ودين فحسب ، وانما كانوا أئمة في العالم الاسلامي كله ، ندر ان تجد لهم نظيراً ، في اختصاصاتهم ، التي قضوا حياتهم وهم يتعلمونها ويعلمونها ، وما زال النور الذي نشروه يشع حتى اليوم في ديار الشام ، بفضل ما بثوا من علم صحيح ، وتوجيه قويم ، وروح علوي ، وعروبة اصيلة ، ووطنية صادقة .

لم ادرك شخصياً الشيخ عبد الرحمن سلام ، رحمه الله ، ولكني سمعت عنه ممن سبقني روائع في الذوق والرقة واللطف ، وتحبيب الطلاب بلغة العرب وآدابها . وكان شاعراً مبدعاً رقيقاً ، وعالماً ضليعاً ، فحبذا لو أحيي ذكراه العطرة بعض من ادركه من اخواني الذين تتلمذوا على يديه .

وقد ادركت الشيخ محمد الداودي رحمه الله ، في اواخر ايام حياته . كان ارق مشايخنا حاشية ، وارحمهم بالطلاب . فما عرفت انه عاقب أحداً منهم ، وكان ضعيف البنية ، بطيء المشية ، مستطيل الوجه ، كَثّ اللحية ، آثار المرض الدائم لا تفارقه ، وآلامه لا تبارحه ، اخذنا عنه النحو والصرف والبلاغة والفصاحة والبيان والبديع . كان يدخل الصف في ايام الصيف ، فينزع جبّته ، ويطويها ، ثم يطرحها على المنبر ، ويضع عمامته المهيبة فوقها ، ويخلع نعليه ، ويتربع على الكرسي ، ويأخذ في القاء درسه على الطلاب بصوت جهوري ، يسمعه كل من في القاعة ، وقد يتجاوز عدد طلابه في السنين الاولى التسعين وكان له ترتيل في القاء بعض الدروس ، لم اعهده في احد من اساتذتي ، في جميع مراحل التعليم .

فاذا تلا البيت المشهور :

قال لي كيف انت ؟ قلتُ : عليلُ سهرٌ دائمٌ وحزن طويـــلُ

تلاه بما يتلاءم مع العلة والسهر والحزن الطويل. وكم اتمنى ان استطيع تصوير اللهجة للقارئ، ولكن القلم عاجز عن ان يعطي صورة واضحة عنها . كان هذا الترتيل مؤثراً اعمق التأثير ، في فهم الدرس ورسوخه ، وفي تصوير حالة الشيخ المرضية نفسهـــا . كذلك كان يرى في بعض الاحوال فائدة في القراءة الجماعية، وربما قرأ هو نفسه مع الطلاب، ولن انسى ما حييت درسين ، قرأنا في اولهما معه قصيدة على وزن البُرْءَة للأبوصيري ، مطلعها :

مهلاً أعاذلُ قد جـرَّبْتِ من خـُلـُقي اني أجودُ لأقوامٍ وإنْ ضَنِنـُوا

قرأناها مع الشيخ على النغم المعروف، الذي يقرأ فيه الناس البرءة في حلقات الذكر.

وفي ثانيهما قرأنا قراءة جماعية الأرجوزة الشهيرة .

ويلي على كَفَّيْنِ من سَوِيق او شَحْمَةٍ تُضْرَبُ بالدقيقِ
تَفَشَأ عنَّا سطواتِ الريق يا جالب الرحمة بعد الضيق ...

وكان الشيخ رحمه الله ، قد قرأ بعضها امامنا منغمة ، ثم طلب الينا قراءتها معـــه ، فقرأناها ، وكان يضبط الايقاع وهو يصفق بكلتا راحتيه ، ويهتز يمنة ويسرة .

ان صوت شيخنا رحمه الله، ما زال يتردد بين جوانحي حتى اليوم ، وما زالت صورته الرائعة ، وهو يقود الصف في الانشاد ، ماثلة امام عيني .

وقد يستعين بالعامية الى جانب الفصحى في بعض دروسه ، تسهيلاً على الطلاب في فهم ما يقرر . كان يلقي درساً موضوعه (فعل الامر) ، فاراد ان يوضح للطلاب انه لا يعني الامر دوماً، فقال : قد يعني التعجيز كقولك (هلق اخلق لي الف ليرة)، وقد يعني التهديد كقوله — مخاطباً الطلاب — : (اعملوا وكتروا) ، وقد يعني الرجاء كقولك (دخيلك دينّي عشر ليرات) الخ ...

وكان (التشجير) طريقته المفضلة في تلقين النحو والصرف، يرسم الشجرة بيده على السَّبُّورة (اللوح) تباعاً ، فترسخ في اذهان الطلاب، وما زالت اشجار النحو التي رسمها واضحة في ذهني حتى اليوم . ولقد فاجأنا ذات يوم بورقة مطبوعة ، وزعها عـــلى

الطلاب ، محلاة بالماء المذهب ، واذا هي قصيدة نظمها في تحية زملائه الاساتذة جودة الكيال ويحيي الشماع وحسني سبح ، بعد عودتهم من طلب العلم في ديار الغرب ، فأقرأنا اياها ، وشرح الفاظها . وما زلت احفظ مطلعها حتى اليوم ، قال رحمه الله :

دَعْ ذِكْرَ ذاتِ الحَلْيِ والخلخال   والفَاتِنَاتِ أَخَا النُّهَى بِالْخَالِ

وكان من ألطف ما فيها انه جمع اسماء الاساتذة الثلاثة في بيت واحد فقال :

يَحْيَى بني الشماع حُسْني من بني   سَبحٍ وجَوْدَةُ من بني الكيّال

والنحو مادة صعبة ، ذللها الداوودي بتمكّنه منها ، وطول معاشرته لكتبها ، وذوقه في تلقينها . شيعه مكتب عنبر ، باساتذته وطلابه ، يوم انتقـــل الى الدار الآخرة — والتشييع آخر ما يجود به الاحياء على الاموات — وما كنا ندري يومئذ اننا قد شيّعنا رجلاً قَوَّم لسان جيل بأسره .

٢ - الشَّيخ عَبْدُالْقَادِرِالْمُبَارَكْ

نَثْرٌ فُصْحَى ولَقْنُهَا تَلْقِينًا بِإِعْرَابٍ

وعرف مكتب عنبر الشيخ عبد القادر المبارك سنين طويلة، اتصلت من ايام الترك، الى العهد الفيصلي ، الى ايام الانتداب . عرفته رحمه الله استاذاً للدين ، ثم استاذاً للغة . كان قليل شعر الوجه ، فصيح اللهجة ، قوي النبرة ، دائم النشاط ، يكتب ويقرأ بدون تنقيط . وكانت دروس الدين تفيض بالفوائد اللغوية الفريدة ، التي تنهال على لسان هذا الامام من حيث يريد ولا يريد . فكم حفظنا منه ، واخذنا عنه . وكان يعلو احياناً الى ارفع طبقات البلاغة ، ويهبط حيناً الى العامية الدمشقية ، في سبيل الايضاح لضعفاء الطلاب . ولم تكن دروس السيرة النبوية الا مجموعة نادرة من روائع النثر والنظم. ولما عهد اليه في تدريس اللغة العربية تكشفت للطلاب مزاياه . كان اعلم اهل زمانه بالمفردات ، وقد شاع ذلك عنه ، حتى قال عنه خصومه انه نسخة حية من القاموس . واشهد انني كنت اختار الفاظاً غريبة فاسأله عنها ، فيجيبني رحمه الله بنص عبارة القاموس او (فقه اللغة للثعالبي) . فقد عرف عنه انه كان يحفظ فقه اللغة والالفاظ الكتابية والقاموس المحيط عن ظهر قلب . سألته مرة ، وانا اعرف الجواب ، ما معنى (العُطْبول) ؟ فاجابني على الفور : اذا كانت المرأة طويلة العنق في اعتدال وحسن فهي عطبول ، وكانت هذه الجملة بحروفها عبارة الثعالبي في فقه اللغة . وكان على علمه وحفظه دائم الاستعانة بالقاموس ، يستصحبه غالباً في درس القراءة ، ليتثبت مما يمكن ان يشتبه فيه . كان كتاب القراءة في تلك الايام زهر الآداب للحصري وهو الكتاب الذي حوى روائع من الادب الجاهلي والاسلامي والاموي والعباسي ، لا ككتب القراءة التي نراها في هذا الزمان .

واشهد انه دخل الصف مرة ، فطلب الى احد الطلاب القراءة ، فقرأ . واذا بالشيخ

رحمه الله يتوقف عن الايضاح والشرح ، ويعلن دون حرج : سامحوني ، فانا لم احضر درسي في هذا اليوم ، عليّ بالقاموس ! هذا خلق العالم الحقيقي . انه لم يجد أي حرج في ان يعلن لطلابه انه لا يستطيع ان يكون الاستاذ الذي عرفوه ، لانه لم يقرأ النصوص قبل الدرس . اين هذا مما نرى في هذه الايام من تعالم الجهلاء، واستعلاء الادعياء ، وتظاهر الضعفاء ؟ واذكر انه تلا ذات يوم بيتاً من الشعر أُنسيته ، وفيه فعل فلفظه بالبناء للمعلوم ، وحقه ان يكون بالبناء للمجهول ، فنبهته اليه . واذا بالشيخ رحمه الله يهتز طرباً ويقول للطلاب – وهو من هو – : انا استاذكم جميعاً ، وظافر استاذي في هذه ! ولعمري ان هذا التشجيع من امام عظيم لفتى لم يتجاوز الخامسة عشرة ، قد دعاني للاندفاع كالسيل المنهمر في ارضاء الشيخ والتفوق في درسه . وكان له غرام بالمترادف ، يقصف به لسانه كالرعد ، دون توقف ولا تلعثم ، فاذا ما اعترضته لفظة غريبة رأى وجوب شرحها للطلاب ، شرحها احياناً بما هو أغرب منها ، وأعقبها بلفظ واضح . وكانت له ميزة حفظ قصص العرب ، يرويها للطلاب، وكأنه يقرأ من كتاب ، كأنه حفظ نصوصها كما وردت في كتب الامهات . انني اعود منذ سنين الى هذه الكتب فاذكر الفاظ شيخنا التي حفظتها ، فاذا هي نفسها كما اقرؤها ، واذا كان هنالك من تعديل فهو يسير ، وقد يكون مرده الى سوء حفظي .

كذلك كان رحمه الله مولعاً بأمثال العرب ، يشرحها للطلاب باسلوب جذّاب ، فيروي اصلها ، ويحكي حكايتها . وقد لا يتحرج حيناً من ذكر لفظ لم يؤلف ذكره في المدارس ، فيرويه كما ورد في الكتب . وقد يشير احياناً ولا يفصح . ما زلت اذكر كيف شرح لنا اصل المثل المشهور (أشغلُ من ذاتِ النِّحْيَيْن)[1] ، فكان مثلاً رائعاً في الذوق، لم تصدر عنه كلمة نابية ، ولا لفظ غير لائق ، واستطاع مع ذلك ان يوضح معنى المثل ايضاحاً كاملاً .

اخذ عليه معاصروه ، كما اخذ عليه بعض طلابه ، انه قال الشعر ، وليس من اهله . وقد يكون في هذا شيء من الحق ، ولكنه لا يغض من مكانة الشيخ ، فلقد عاش في زمان كان فيه التافهون من ادعياء الادب ينظمون الشعر ، فلمَ لا يحاول امام مثله من أئمة اللغة والأدب ان يقول الشعر ؟ ولقد كان قول الشعر في زمانه في صفات المتأدب ، فمن رزق الموهبة والسليقة ، اضحى شاعراً ، ومن لم يرزقها بقي ناظماً .

---

١) راجع اصل هذا المثل في الصفحة ٢٥٥ من مجمع الأمثال للميداني – المطبعة الخيرية – ١٣١٠ هـ . طبع القاهرة .

واخذ عليه خصومه انه كان عالماً، ولم يكن استاذاً ، وان طريقته في التعليم لا تقرها صول التدريس الحديثة . ولقد نسي هؤلاء انه استاذ لغة سماعية ، وان مـــا يمكن ان يستفيده المرء بالسماع ، كثيراً ما يكون ابقى واقوى اثراً من المطالعة والحفظ . ولا ادل على ذلك مما نقرأ في كتب الادب عن هجرة اعلام الشعراء والكتاب القدامى الى البادية ليأخذوا اللغة عن الأعراب ، من افواههم . ولاني لأجزم ان اثر شيخنا رحمه الله في ما تحدث به الى الطلاب ، كان اثراً قوياً عميقاً ، اذا ضاق به بعض الطلاب قبل ثلاثين سنة ، فانهم يحمدونه في هذه الايام .

واخذ عليه الناس جميعاً انه لم يترك اثراً يدل على سعة علمه ، وغزير اطلاعـــه ، ومدهش حفظه .

واذا كان هذا صحيحاً، فان الصحيح ايضاً انه قد ترك اجيالاً متعاقبة ، اخذت عنه صحيح اللغة ، فقوم السنتها ، وبث فيها حب الفصحى ، فلقد كان يصر على طلابه ، حتى في دروس الدين ، ان لا يتحدثوا وان لا يرددوا دروسهم الا بها . ولكم كان يطرب رحمه الله حينما يقف احد طلابه ويتكلم بالفصحى ، وكم سمعنا منه كلمات التشجيع في هذا المعنى .

ولكم وَقَفَهُ الطلاب بعد درس استغرق ساعة كاملة من الجهد المضني ، ليسألوه ، فلا يتبرم بأحد منهم ، بل يقضي معهم (الفرصة) التي اعدت لراحته ، وكأنه في درس جديد .

كان مولعاً بالشاي والتدخين ، لا ينفك عنهما . وللتدخين آثار واضحة على سبابته ووسطاه ، فاذا ما اراد استذكار مسألة لغوية ، أو شاهد ، أو لفظ ، أخذ لفّافتـــه فعبَّ منها عباً عميقاً، حتى ليخيل اليك انه قد غاب، ثم ينثر عليك من علمه ما يدهشك.

كان مكتب عنبر في ايام العهد الفيصلي واول ايـــام الانتداب يستعمل بعض الالفاظ التركية ، فمحاها واستبدل بها الفاظاً عربية فصيحة .

كان شيخنا المبارك نسيج وحده ، وما اظن ان الولادات ستلد مثله في مستقبل هذا الزمان .

٣ - الشيخ سليم الجندي

لم ادرك شيخنا سليم الجندي رحمه الله ، بعمامته ولحيته ، فقد قيل انه اعتمر بالعمامة في اول نشأته ، وكانت له لحية خفيفة ، ثم استغنى عنها . وانما ادركته (افندياً) يلبس الطربوش ، والبزّة الافرنجية . ولقد بقي سليم الجندي شيخاً ، بكل المعاني التي عرفناها ، اللغوية والاصطلاحية ، فهذا اللقب عرفـه العرب للجِلّة من العلماء الذين نشروا نور العلم ، فقالوا في كتبهم : ومن مشايخنا ، وعُرف عن مشايخنا ، واخذنا عن مشايخنا ...

كان رَبْعَةً بين الرجال ، لا الى الطويل ولا الى القصير ، يمشي الهوينا ، خافت الصوت ، كثير الحذر ، يخاف الليل ، والبرد ، لم يمش في جنازة قط !

ولقد كان تاريخ آداب اللغة العربية المادة التي اختص في تدريسها . لقّنها للطلاب اجيالاً متعاقبة ، بأسلوب رتيب ، لا يكاد يتغير ، ينضح منه العلم الغزير ، والحفـظ الوفير ، والاحاطة بالغريب ، والعمق في البحث ، واتساع الاطلاع ، فقد كان من اعلم علماء عصره بالكتب والرجال ، ولهذا كانت خاتمة درسه حافلة دوماً بثَبْتٍ من الكتب ، يرشد الطلاب اليها ، ليرجعوا الى ما فيها ، وليوسعوا دراساتهم في البحث الذي كان يقرره .

رزق الهدوء في الطبع ، فقلما غضب او اهتاج . ولا اذكر انـه تحمس وهو يلقي دروسه الا ثلاث مرات ، وقد اخذت عنه العلم سنين طويلة ، اولاها يوم تحدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد كان يملأ نفسه اعجاباً . وساعة وصل الى حادث اغتياله ، تغيرت لهجة الشيخ في الالقاء ، وارتفع صوته على غير عادة ، وبدا الانفعال واضحاً في ملامح وجهه ، وكأن الاغتيال وقع بالامس ، وختم حديثه بهذه الجملة التي ما زلت احفظها عنه : (وهكذا طُعِن الاسلام طعنة لم يبرأ منها حتى اليوم) .

وثانيتها يوم تحدّث عن المعرّي . فقد كان غرامه به معروفاً ، وما اظن ان احداً من المعاصرين عرف المعرّي وفهمه، كما عرفه وفهمه شيخنا الجندي والشيخ طه حسين. لقد رأيته يومئذ يهتز على مقعده ، وكيف لا يهتز ، وهو يتحدث عن شيخه واستاذه . ولقد احسسنا يومئذ ان قلب الشيخ هو الذي يتحدث ، لا عقله وحـــده ، فقد أثر طول الصحبة للمعري على الجندي ، وخلقت بينهما روابط عديدة . ولعلي لا ابالغ اذا قلت إن شيخنا كان يتحدّث عن نفسه ، يوم تحدّث عن المعرّي . لقد كانت جميع مظاهر الانفعال بادية عليه وهو يقرر ايمانه وشكه ، وزهده وورعه، وسوء ظنه بالمجتمع والمرأة، وغير ذلك . ويروي في سبيل تأييد آرائه الشاهد تلو الشاهد، دون تلكؤ أو تلعثم، بلهجة تختلف عمّا الفنا ، هي الى الانشاد اقرب منها الى الرواية .

وفي المرة الثالثة ، ظهرت وطنية الشيخ رحمه الله، طلب الى الطلاب ان يكتبوا وظيفة في الانشاء موضوعها (وصف تفاحة) . كان ذلك في اعقاب الثورة السورية . وقد بدا لأحد الطلاب ان يشبه حمرة التفاح بدم شهداء الثورة، وصفرتها بصفرة الموت التي تلوح على وجوه الشهداء . وقد طلب الشيخ الى صاحب هذه الوظيفة قراءتها امام رفاقه، فقرأها الطالب بكثير من الحماسة والاندفاع . ولوحظ على الشيخ الطرب والاعجاب ، فلم يكن يخطر في البال مثل هذا التشبيه . ولم يكن الزمان مواتياً لتعليق الشيخ على الموضوع ، ولكنه اكتفى بأن قال : احسنت ، ومنحه العلامة الكبرى .

وكان رحمه الله يخاف الليل ، فاذا اتفق ان كان في الطريق وسمع اذان المغرب ، ولم يكن معه احد ، هرول الى البيت . وكانت له حلقة من الاصدقاء يسمر معهم احياناً ، ولكنه يأبى الحضور ، ما لم يضمن له رفيق يصل معه الى باب الدار في نهاية السهرة . حالفه هذا الخوف طول حياته ، ولم اجرؤ على سؤاله عنه ، على الرغم مما كان يَحبُونني به من حب وود . كذلك كان يخاف البرد ، شديد التحفظ منه ، وربما بالغ ، فلف رأسه بالصوف ، وهو يمشي في الطرقات ، اتقاء اذاه .

وعلى الرغم من انه قضى معظم حياته على منبر التدريس ، فانه كان يخـــاف منبر الخطابة او المحاضرة ، فلم يعرف عنه انه حاضر مرة واحدة ، لا في المجمع العلمي ولا في غيره . ويوم اضطر لأن يكون بين المحاضرين عن المعرّي في مهرجانه الذي اقامه المجمع العلمي العربي بدمشق، عهد في القاء محاضرته الى تلميذه الاستاذ صلاح الدين المنجد .

وكان عميق النكتة حادها ، وربما كان جارحاً فيها احيانـــاً ، وما اظن ان القارئ يطالبني بالتمثيل على الحاد والجارح . وكان قليل الابتسام ، واذا انفرجت شفتاه ،

فبمقدار . ولكني رأيته يوماً يضحك من اعماقه ، ويضحك الصف معه . دعا طالباً الى السبورة (اللوح) ، وكانت مليئة بالكتابة ، فلم يكن بد للطالب من محو مـا عليها ، فبحث عن (المَحَّاية) ، فلم يجدها ، واحب ان يتفاصح فقال : اين المِمْحَاة ؟ واذا بالشيخ يغرق في الضحك فوراً ويقول للطالب : ويحك ! هل تعلم ما معنى الممحاة ؟ قال : لا أستاذ ! قال : الممحاة خرقة الحيض ! في هـذا اليوم فقط رأيت الشيخ يضحك في الصف ، ويضحك الصف معه .

ودعا احد الطلاب ذات يوم للكلام عن عنترة ، وكان الطالب خفيف الروح ، فقال على الفور : عنتر من الصحابة ! ولا تسل عن ضحك الشيخ لهذا الجواب . وكان يُعرف عن هذا الطالب خفة الروح ، فلم يؤاخذه .

وكان مرة يشرح هذا البيت :

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أَنْ يَلِجا

وكان في الصف تلميذ بليد ، فلم يفهم من البيت الا ان الذي يطيل قرع الباب ، لا بد له ان يدخل ، ولم يدرك ان المراد من البيت الحض على الصبر ، والمثابرة على الجد ، فسأل الشيخ بكثير من الغفلة والبرودة : واذا لم يكن في البيت احد ؟ (قالها بالعامية !) واذا بالشيخ رحمه الله يغض طرفه ، ويهتز الى الامام والوراء ، ويقول بالعامية ايضاً : (اقعد ، بينزلوا الجيران بيفتحوا له) !

احب الفصحى ، ونشر لواءها ، وان لم تكن لغته التي اعتاد التحدث بها في حياته اليومية ، خلا دروسه فانها قد تنزهت عن العامية ، وكانت عباراته غالباً في ارقى طبقة من طبقات البلاغة .

اخذنا عنه الصبر على الدراسة ، وتلك صفة كانت موجودة وتكاد تفقد ، فان ابناء هذا الجيل يضيقون بالكتب السهلة ، فكيف يصبرون على الكتب القديمة ؟

منحني صداقته بعد انتهاء الدراسة ، فأخذت عنه الكثير ، وكنت وما زلت بهـا معتزاً فخوراً ، وكانت لي معه وقفات عند الباعة في كل صباح ، بعد ان جاورني في المهاجرين ، يلقي فيها النكات الحادة ، عن المجتمع ، بعلمائه ، وساسته ، واساتذته ، وطلابه ، وخاصته ، وعامته . كما كانت لي جلسات في داره ، في حارة الشالة ، ما زال عبقها في روحي حتى اليوم .

لقد كان بطلاً من ابطال العربية في مكتب عنبر ، وهيهات ان تحظى العربية بمثله في هذه الايام ، وهيهات ان ينبغ مثله بين علماء هذا الزمان !

٤ ـ محمد البزم

فنان حمل على التعليم

وشيخنا البزم ، يا له من شيخ ! انه مثال للانسان الذي يصح ان يقال فيه : كان هاوياً ، اكثر مما كان استاذاً ! ـ على حد تعبير هذا الزمان ـ وما ادري والله هل يرضى شيخنا البزم في قبره عن هذا الوصف ام يغضب ؟

لم يكن شيخنا البزم رحمه الله من المشايخ في ورد ولا صدر ، وانما سلكته معهم ، لانه اخذ عنهم ، ولزم في نشأته مجالسهم ، وانتظم في حلقاتهم ، وان خالفهم في بعض طرائفهم ، ولم يعلق فيه شيء من آثارهم . لم يعرف العمامة والجبة حياته ، كما لم يعرف الجامعة والشهادة . وانما كان شيخاً من شيوخ العربية ، كما كان شيخاً لجيلنا وللأجيال التي تعاقبت بعدنا ، وفيّناه التبجيل ، ووردنا معينه نستقي منه النَّهَل والعَلّ ، وتمطرنا سحائبه بالوبل والطل .

مديد القامة ، من غير سوء ، هادئ المشية ، في غير تثاقل ، عصبي المزاج ، كثير الاعتداد بنفسه ، حريص على كرامته حرصه على حياته ، سريع الانفعال ، حاد الذكاء ، ألِفَ الفصحى حتى لا يكاد يعرف غيرها لغة للخطاب .

ظفر به مكتب عنبر استاذاً للغة العربية ، ولم يكن من قبل قد مارس التعليم ، ولا عرف كيف يقاد الفتيان . وكنا من اوائل من اخذ عنه . اني لأذكر ساعاته الاولى في هذه الايام ، واستعيد صورها ، فارى اننا قد لقينا رجلاً عجيباً فريداً ، لو قلت عنه انه استاذ لما عدوت الصواب ، ولو وصفته بأنه كان في قاعة الدرس محدثاً لكان الوصف صادقاً ، ولو حسبت الدرس ندوة للفوائد والطرائف ، لكان حسبانك هذا صحيحاً .

حدثنا لِدَاتُه انه قضى فترة صباه مترفاً ، ناعم البال ، موفور الرزق ، كثير النشب ،

لا يقاق له بال، ولا يعرف الهموم، آخذاً بوصية ابن ابي ربيعة التي قال فيها : « يا ابني اخي ! خلقت مولعاً بالجمال اتبعه ، فتمتعا بشبابكما قبل ان يزول ، فان الشباب نعمة لا تدوم » . ثم انزله الدهر على حكمه ، من شامخ عال الى خفض . وغَالَهُ الدهرُ بوفر الغنى ، فلم يبق له مال سوى العرض . وكان الشبابُ في إبّانه ، والصبا في عنفوانه ، فحُمل على التكسب بالتعليم ، ولم يكن ذلك في حسابه ولا في ميزانه ، فوفد عليه وفود الفنان ، ولعله حسبه مجلساً حفل بالقيان ، وقد انتظمت في احضانها العيدان ، وطاف فيه بالأكواب الغلمان، ونُشِر فيه الورد والريحان . ثم ما لبث ان فَجَأَهُ الواقع ، ورأى اصنافاً من الخلائق الصغيرة، المتفتحة للحياة والعلم، بعضها رزق الذكاء والفهم، وبعضها غبيّ او فَدْم ، وبعضها تحلى بمكارم الاخلاق ، واخذ من الجد بنصيب الحُذّاق ، وبعضها اوتي الشراسة ، وتنكب طريق الكياسة ، وبعضها خبيث ماكر ، يهوى العبث الخاسر...والفى منهاجاً مقرراً، الزمه الدوام في ساعات معينة ، تبدأ من الصباح الباكر ، ولم يكن ذلك مؤتلفاً مع مزاجه ، كما الزمه بتصحيح (الوظائف) – وما اكثرها – ، وما كان الليل عنده لمثل هذا الارهاق ، فعمد في ايامنا الى تصحيحها في الصف ، لينفض يده من عنائها ، ويسلم من اعبائها ...

كان التعليم في البداية عنده مركباً من الأسنَّة ، ولكنه كان مضطراً ، فلم تكن له حيلة الا ركوبها . وما اظن انه قد ألفه كما ينبغي ان تكون الألفة ، الى اواخر ايامه فيه. ولقد ادى رسالته على طريقته ، فبلغ الغاية ، التي ليس بعدها غاية ، وادرك مناه، على النحو الذي يحبه ويرضاه .

عشق الفصحى، وفني فيها، فما عهدناه تحدث بغيرها، في مكتب عنبر على الأقل . وقد أطاعته في الحديث ، اكثر مما اطاعته في الشعر والنثر . كانت تتدفق على لسانه كالرحيق السلسل . وكان له غرام باختيار الألفاظ ، كالصائغ الماهر ، الذي يحسن تنسيق الجواهر النفيسة ، ويؤلف منها حلْيَتَه . اما تركيب جمله ، فكان نسيج وحده ، لا يكاد يقلده فيه احد . واني لأعجب اليوم من شيخنا البزم ، كيف كان يملك زمام هذه اللغة في الحديث ، سواء أكان مدرّساً ، ام مناقشاً ، ام محدّثاً ، قاعداً ام واقفاً ام ماشياً . واني لأذكر انني رافقته مرات في الطريق ، فكان يحدثني ، وكأنه في قاعة للمحاضرات ، لا يبالي بتدافع الناس ، ولا بضجيج السيارات ، ولا بضيق الأرصفة : تسلسل في الفكر ، وفصاحة في النطق ، وذوق في انتقاء الألفاظ ، وبراعه في تركيب الجمل .

كان مرة يصحح للطلاب وظيفة الانشاء في الصف ، فاستدعاهم واحداً بعد آخر ، ينظر في اوراقهم ويشير بقلمه الى مواضع الخطأ ، والى مـــا يحسن استبداله ، ويعطي النصائح . وكان طبيعياً ان يتشاغل الطلاب ، بانتظار نوبتهم ، وان يقع بعض الضجيج ، فتبرّم ، ودعا للسكوت ، فلم يسكتوا ، واذا به يختار طالباً ، طويل القامة ، كان يجلس في آخر مقعد ، ويقول له : ابحث لي عن مصدر التشويش ، — كذا قال رحمه الله ، وأظن ان الصواب التهويش ، فليس في المعاجم تشويش — وكان الطالب أريباً ، فقال للشيخ بعد هنيهة : استاذ ! لم اجد المصدر ، وانما وجدت اسم الفاعل ! لقد ضحك يومئذ ضحك الغاضب ، فما كان يمكن ان يفوته ما في جواب الطالب من تهكم ، ولكنه اغضى اغضاء الأب الرحيم .

ومن فضائله التي لا ينساها طلابه ، انه اول من عوّد الطلاب الرجوع الى المعاجم ، وقد اختار لهم أيسرها واصحها ، فالزمهم شراء (مختار الصحاح) ، وكان يدلهم على طريقة البحث ، وكيفية رد اللفظ الى الثلاثي ، لتقوى عندهم الملكة اللغوية ، وليعتمدوا عـــلى انفسهم في فهم الغريب .

ولم يكن سيّئ الظن بالمنجد ، خلافاً لما سمعنا من مشايخنا الآخرين . كان يقول : فيه خطيئات ليست كثيرة ، يمكن التنبيه اليها ، وتصحيحها ، وفيما عداها ، فلا جناح عليكم في ان تعودوا اليه .

وكان له غرام بالكليات ، مع احاطته بالجزئيات . وهذا من صفات الفكر العلمي ، فقد قال الأقدمون : « لا علم الا بالكليات » . لقد لاحظ مرة ان بعض الطلاب يخطئ في رسم الهمزة ، فغضب وقال : هذا أيسر ما يُحفظ : قواعـــد الهمزة كلها لا تعدو كلمات ، انها تتبع مبدأ تغلب القوي على الضعيف ، وفقاً للحركات : فأقواها الكسرة ومقعد الهمزة فيها النبِرة ، ثم الضمة ومكانها الواو ، ثم الفتحة ومحلها الألف . فاذا حفظت هذا عرفت كيف تكتب (فئة) وكيف ترسم (بؤرة) ، وكيف تخط (فأل) ...

وعرف عنه الناس جميعاً الافراط في الاحساس ، والسرعة في التأذي ، فجامله محبوه ، وجانبه شانئوه ، وراعى مزاجه زملاؤه . وان انسَ لا انسَ ذات خميس ، كنت مع رفيق لي منصرفين من مكتب عنبر ، وكنا في الصف الأخير ، فلقينا في الطريق شيخنا البزم فحيّيناه ، وردّ التحية . وفي اليوم التالي ، انعقد في دارنا بباب الجابية المجلس الأسبوعي الذي كان يضم فريقاً من تلاميذ والدي رحمه الله : المشايخ عبدالله العلمي ، وبهجـــة

البيطار ، وتوفيق البزرة ، وحامد التقي ، وعمي قاسم وغيرهم . كان الشيخ العلمي يقرأ على المشايخ كتابه في تفسير سورة يوسف ، وتجري خلال القراءة مباحثات ومناقشات واستطرادات لغوية وأدبية وتاريخية (لهف نفسي على هذه المجالس ، ووا أسفي على انقراضها ، ولعلي افرد لها بحثاً خاصاً) . وبينا كنت اخدم الضيوف ، واطوف عليهم بأكواب الشاي ، وقد توسط الحلقة السماور[1] ، ينبعث منه البخار في الجو ، اذا بباب الدار يطرق ، وكم كانت دهشتي عظيمة حينما رأيت شيخنا البزم ، بقامته المديدة، وقد آذاه المطر والوحل ، في الوصول الى دارنا.فأخذت منه مظلته وادخلته الى مجلس المشايخ ، فعجب لهذا المجلس ، وفرح فيه ، وشارك في مذاكراته ، ببراعة تأسر الألباب . واخذ في نثرِ ذكرياته عن هذا البيت ، وعن شيخه جمال الدين القاسمي ، يوم كان يرتاده مع صَفيِّه صاحب (الاعلام) الاستاذ خير الدين الزركلي، وما كان يلقى من شيخه من تشجيع وتنشيط ، فكانت ذكرياته هذه من امتع الأحاديث واحلاها التي سمعتها عن ابي . قدمت له كأساً من الشاي ــ ولم يكن به مولعاً ــ فشربها . ثم قدمت الثانية فنظر اليّ نظرة لم افهم منه معناها . ولما قدمت الثالثة قال لي ضاحكاً : وهل تريد ان تعطيني كأس البطولة ؟ وأنس بالمشايخ وبمجلسهم ، فامتدت جلسته معهم اكثر من ساعة . ثم نهض مودعاً ، واقسم ان لا يصحبه الى الباب غيري ، فتبعته . وكان في بيتنا غرفتان متداخلتان ، فلما خرجنا من الاولى ودخلنا الثانية ، أشار عليّ بالجلوس فجلست . ثم قال : رأيتك امس مع فلان . قلت : نعم . قال : انه اخ لفلان من طلابي في الصف الثالث . قلت : نعم . قال: ان هذا الطالب قد اساء الأدب معي ، ولم اشأ ان افرض عليه العقوبات المدرسية ، وانت تعلم انني من هذه الحياة يائس (وقال كلاماً لا احب ان اعيده) ، فأبلغ رفيقك هذا: اما ان يكف اخوه ، واما ان يكون لي معه شأن آخر. عندئذ فهمت سر الزيارة المفاجئة التي وقعت بعد عشرين عاماً من وفاة شيخه، فأخذت في تهدئته ، وترضيته ...

ولقيته مرة في الزبداني ، صيف عام ١٩٣٠ ، بعد ان نشرت الصحف قصيدته في

---

١) السماور : لفظ اعجمي معرّب ، معناه الأداة التي أعدت لتسخين الماء الذي يصنع منه الشاى ، وسطه مجوّف يوضع فيه الفحم المشتعل ، ويحيط بهذا التجويف شكل كروي أو مربع يوضع فيه الماء ، وله انبوب صغير يجري منه الماء الغالي . وقد ندر اليوم استعماله .

رثاء المرحوم فوزي الغزي . وقد اردت ان اداعبه ، فقلت : قرأت قصيدتك العصماء ، وعجبت من توارد الخواطر فيما بينك وبين ابن المعتز ! قال: حيث يقول ؟ قلت : ختمت قصيدتك بهذا البيت :

لستُ أستسقي لمثواك الحيَا فلقد ضُمِّنَ غيثاً وعُبَابا

وابن المعتز يقول :

لستُ مستسقياً لقبرك غيثاً كيف يظما وقد تضمَّن بحرا

ففهم رحمه الله اشارتي ، وظهرت في وجهه امارات استنكاره لجرأتي عليه ، وقال : لم اسمع ببيت ابن المعتز حتى الآن . فسكتُّ لما لمحت في محياه . وقد انقضى على هذا الحادث اثنان وثلاثون عاماً . ومن عجب انني ساعة اكتب هذه الأسطر ، يدخل عليَّ ساعي المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ويضع بين يدي مجموعة من الكتب اهداها اليَّ المجلس ، ومن بينها ديوان شيخنا البزم ، فأسارع الى القصيدة ، فلا ارى هذا البيت فيها . ويقيني انه قد استغنى عنه ، رحمه الله ، فشطّبه بعد مصارحتي له .

تلكم بعض مظاهر احساسه المفرط ، الذي لازمه طول حياته ، وكم عانى منه ، وكم سبب له من آلام ، زادته سقاماً على سقام !

وكان يحب ابا نواس ويتعصب له . وكنت اعرف ذلك عنه . زارني عقب زواجي مهنئاً . ودخلت زوجتي لتحيته فسأل عن اسمها ، فقلت : ناهدة . قال : وكيف ترضى ان يكون اسم زوجتك خطأ ، الصواب : ناهد . فقلت له : وما رأيك اذا كان اسمها قد ورد في شعر ابي نواس ؟ قال : ابو نواس آخر من يُحْتَجُّ بشعره ، ماذا قال ؟ قلت[1] :

ونَاهدةِ الثَّدْيَيْن من خَدَمِ القَصْرِ

---

١) وثمة شاهد آخر ، يدل على صحة التسمية ، قائله عمر بن ابي ربيعة ، ولا خلاف في الاحتجاج بشعره وهو قوله :

وَنَاهِدَةِ الثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لَهَا اتَّكِي

قال رحمه الله ضاحكاً : لقد صَرَعْتَني ! واخـــذ يروي لزوجتي قصة الجواري الثلاث ، اللاتي صرعن ثلاثة أئمة ...

اخذ خصومه عليه انه كان يقوّي القوي من الطلاب ، ولا يستطيع الضعيف أن يلحق به . وذلك عيب الميزة Le défaut de la qualité — كما يقول الفرنسيون —، قَلَّ ان نجا منه عظيم .

هذه لمحات من صورة شيخنا البزم ، عشق الفصحى فأطاعته ، وربّى اجيالاً على حبها ، كما اتخذ التعليم فناً فأبدع فيه ، وحلّق في سماواته .

الأبطال

الذين أقاموا صرح العلم والوطنية والأخلاق

جَوْدَة الهَاشِمِيّ

كان استاذنا المرحوم جودة الهاشمي جزائري الأصل. ومن عجائب الأقدار، وكرمها، ان اكتب هذه الكلمة عنه، في البلد الذي انبته، وحرم من العودة اليه، وحنّ اليه طوال حياته.

في ليلة العيد القومي للجزائر العربية، اخلو في غرفتي بالفندق مع قرطاسي وقلمي وذكرياتي، لأرسل الى روح جودة الهاشمي في عليائها بالجنان، تحية التلميذ الأمين، الذي يبهجه ان يخلد فضائل استاذه في ارض وطنه الاول، الذي ضرب المثل الاعلى في البطولة والجهاد.

ولقد كنت عازماً على ان اكتب عن جودة الهاشمي، وانا في دمشق، وكان المنهاج الذي وضعته لتاريخ مكتب عنبر يقضي ان تأتي سيرته بعد المشايخ، فكان نصيبه الموفق ان تكتب هذه السيرة فوق التراب الذي عطر بدم الشهداء، ويقيني ان روح الهاشمي تهتز طرباً في الجنان، لهذه المصادفة السعيدة.

كان قصيراً بين الرجال، كثير الهيبة، عميق الجد، وافر الوقار، قليل الكلام، نادر الابتسام، في مشيته قَزَل، صادق الوطنية، بَرّاً بابنائه الطلاب، رحيماً بهم.

علّم الرياضيات سنين طويلة في مكتب عنبر، فكان آلاف الرياضيين من حصاد غرسه. كان اذا دخل الصف ساده صمت شامل، فلا حركة ولا نأمة، حتى يقرع الجرس. وكان يتجه الى السبورة، يرسم عليها الدرس، ويشرحه بلهجته الخاصة، التي لم يكن جرسها ناعماً، ولكن ألفها الطلاب، فلم يستوحشوا منها. فاذا ما انتهى من شرح الدرس، عمد الى طرح المسائل، واشرف على الطلاب وهم يحلونها.

كانت هيبته وحدها كفيلة بحفظ النظام . وعلى الرغم من هذه السنين الطويلة التي قضاها في التعليم ، لم يعرف ان صفاً قد اضطرب ، او ان طالباً قد هزل ، او ان شيئاً شاذاً قد وقع . تلك قوة الشخصية التي رزقها الهاشمي ، جعلت منـــه الاستاذ المثالي ، لأصعب مادة يتلقاها الطلاب في الدراسة الثانوية .

ما رأيته ابتسم الا مرة واحدة ، وكانت ابتسامة رمزية . لقد دعاه الى هذا الابتسام طالب متفلسف . اعطى طلابه مسألة حسابية معروفة خلاصتها : قطاران قام احدهما في الساعة العاشرة وسرعته ثلاثون كيلومتراً في الساعة ، ثم تبعه قطار في الثانيـــة عشرة سرعته اربعون كيلومتراً، فمتى يلتقيان ؟ وبعد حل المسألة قال رحمه الله : اما اذا طرحت المسألة الحسابية على شكل معكوس ، بأن كان القطار الأسرع قبل القطار الأبطأ ، فعلينا ان نعكس وضعها، فاذا عرفنا مثلاً ان الاسرع يلحق الابطأ بعد ثلاث ساعات ، قلنا انهما كان ملتقيين قبل ثلاث ساعات . وهنا رفع احد الطلاب يده ، فسمح لـــه استاذنا رحمه الله بالكلام ، فاذا بالطالب يقول : لما كانت الارض كروية، فان القطار الاسرع سيلحق القطار الأبطأ من خلفه ! فانفرجت شفتاه رحمه الله ، وابتسم ابتساماً رمزياً ، واشار على الطالب بالجلوس .

وكان مع هذا حبيباً الى قلوب الطلاب . فلم يكونوا يحترمونه فحسب ، وانمـــا كانوا يحبونه ايضاً . تجلت مظاهر هذا الحب خلال الدراسة ، وبعد الدراسة .

وكان وطنياً مؤمناً صادق الوطنية عميقها . ومن روائع وطنيته ورحمته بالطلاب معاً ، ان رجال الأمن جاؤوا ذات يوم الى مكتب عنبر ، وكان مديراً له ، وطلبوا تسليم الأخ حسن السقا ، وكان ذلك في يوم خميس.فأجابهم: انني لا اسمح باعتقاله داخل المدرسة، فاذا شئتم اعتقلوه خارجها . وكان السقا داخلياً، وكانت العادة ان تتلى اسماء المعاقبين من الداخليين بالحرمان من الخروج يوم الجمعة بعد آخر ساعة من ساعات يوم الخميس، واذا بالمرحوم جودة الهاشمي رحمه الله يضيف الى قائمة المحرومين حسن السقا . وقد عجب من العقوبة التي لم يعرف لها سبباً، واخذ يسأل عن سببها، فلا يجيبه المدير، ويلوي وجهه عنه . وكانت عقوبة الحرمان قاسية على الداخليين خاصة ، وفي الساعات الاخيرة من يوم الخميس ينتظرونها بفارغ الصبر ، ليعودا الى بيوتهم ، ويأنسوا بأهليهم ، ويشموا رائحة الدنيا والناس ، ويمشوا في الطرقات . ولهذا كانت لحاجة السقا في معرفـــة السبب الذي لم يكشف عنه الا بعد ان سوى الهاشمي رحمه الله أمر التوقيف واسترده .

واذكر انني لقيته ذات مساء من عام ١٩٤٢ في تهنئة بمولود لأحد الاصدقاء في (بستان الرئيس) ، فلما خرجنا ومررنا امام منزل الرئيس شكري القوتلي ، اخذ يسألني عنه ، فقلت : انه في العراق ، وقد منع الفرنسيون عودته الى سورية . كان ماشياً مشيته الهادئة الرصينة فوقف ، واخذ يبدي اسفه العميق للأوضاع الشاذة التي كانت قائمة في البلاد ، بأسلوب مقتضب حار ، يشف عن روحه الوطني المتأجج .

ومرّت فترة على مكتب عنبر ، كان الاساتذة فيها يتناوبون مراقبة الطلاب الداخليين في الليل ، ولا بد للأستاذ المناوب من ان يقضي ليلة من الاسبوع فيه . وكان على الأستاذ المراقب ان يبقى معهم في حصة التحضير ، وكنا نسميها (الايتود Etude) ، التي تلي انصراف النهاريين ، وتسبق العشاء ، ثم يصحبهم الى المطعم ، فيتناول طعام العشاء بعدهم ، ثم يستريحون نصف ساعة ويصعدون الى المهاجع ، ويستيقظون في الرابعة والنصف صباحاً ليغسلوا وجوههم ، ويلبسوا ثيابهم ، ويتهيؤوا (للايتود) ثانية ، وتناول طعام الصباح . كان لا بد من مشكلات في كل يوم ، فهذا طالب يتخلف ، وهذا يهزل ، وذاك لا يدرس ، وذياك يرفع صوته ، او يحدث اضطراباً في النظام . والمراقب يشتد على الطلاب حيناً ، ويرفق بهم حيناً . اما اذا جاءت نوبة الهاشمي فالنظام قائم دون كلام او همس او اشارة ، كلٌّ يقوم بواجبه دون تنبيه او ارشاد في الوقت المعين ، وكأن المدرسة دير للرهبان ، لا مجمع للفتيان ! ذلك اثر من آثار قوة شخصيته ، فرضها على الطلاب ، وعلى الزملاء جميعاً .

لم يعرف عنه انه عاقب طالباً ، لأن النظام قائم فلا داعي للعقوبة ، ولأن المقصّر في الدرس ، يعاقب آخر السنة بالرسوب .

كان اعظم مثال للجد الكامل ، وما كانت الرياضيات التي قضى معظم حياته وهو يدرسها ، هي التي فرضت عليه هذا الجد ، وانما هو المزاج الذي خلق منه ، والجبلة التي ركب فيها . عاش للعلم وحده ، ولم يعرف عنه لهو ، وربما لعب الشطرنج احياناً .

اولع بالتدخين ، فكانت آثاره واضحة على اصابعه .

غلب عليه في اوائل عهده اسم (جودة الرياضي) ، وطغى في فترة من الزمن على اسمه (جودة الهاشمي) ، فما كان الطلاب يعرفونه الا باسمه الذي تغلب فيه الاختصاص العلمي . ولست ادري كيف ومتى شاع على الألسنة هذا اللقب ، وهذا

مألوف في تاريخ الأسر الشرقية، فكم من أسرة فقدت لقبها الأصلي لتفوّق احد افرادها في صناعته .

كان استاذنا من ابناء الجزائر العربية التي تحتفل في هذه الايام باسترداد حقوقها الطبيعية بعد ان فقدتها قرناً وثلث القرن . فلتهنأ روح الهاشمي في عليائها بتحرير وطنه الأصلي ، ولتهنأ الجزائر بسيادتها ، ولتهنأ العروبة بعودة هذه البقعة العزيزة اليها .

مدينة الجزائر – ليل اول تشرين الثاني ١٩٦٢

محمّد عليّ الجزائريّ

وهذا مربّ آخر عظيم ، جزائري الاصل ، لا ينبغي لي ان اغـــادر ارض الجزائر العربية ، قبل ان ازجي له اطيب تحية ، وان ارد اليه بعض فضله . إنه محمد علي الجزائري .

ولقد عرف مكتب عنبر رجلين بهذا الاسم ، فاما احدهما فهذا الذي ادركته وهو اسنّهما ، وكان مديراً ، كما كان رياضياً بارعاً . وامـــا ثانيهما فهو الذي اشتهر باسم (مسيو علي) رحمه الله ، وكان معلماً للغة الفرنسية ، كما كان مديراً ثانياً في فترة لم اكن فيها من طلاب مكتب عنبر . وانما أسجل ذكرياتي عمّن أدركت ، ولعل غيري فاعل عمّن أدرك .

وفد الى مكتب عنبر بعد ان شاخ او كاد ، وبعد ان امتلأت حياته بالتجارب . وقد شاع يوم رأيناه مديراً للمكتب ، انه كان من قبل وزيراً للمعارف في الأفغـــان ، فكان ذلك مدعاة للزيادة في احترامه ، وفي التوقير له . فمن كان وزيراً للمعارف ، ثم اضحى مديراً لمدرسة ، لا بد وان يكون رجلاً عظيماً .

وكان رياضياً بارعاً ، اتقن الرياضيات ، على طريقة القدامى ، كما اتقنها عـــلى طريقة المحدثين . عرفنا هذه الميزة فيه ، يوم زار المرحوم الشيخ بدر الدين المغربي مكتب عنبر ، وطـــاف معظم صفوفه يرافقه مديره محمد علي الجزائري تكريماً له . دخل احد الصفوف ، فوجد فيه المرحوم جودة الهاشمي يعلّم الجبر ، فطرح الشيخ مسألة لا يعرف حلها الا من عرف الجبر القديم ، وكان الشيخ به عالماً ، فأدرك المدير الحرج الذي يمكن ان يصيب الاستاذ والطلاب ، فاقترب من السبورة ، واوضح ان المسألة لا تحل الى على العلم القديم ، وشرحها للطلاب .

علم الحساب ، فكان سلس الاسلوب ، واضح الطريقة ، وتلك ميزة تفرد بها عن كل من اخذت عنه الرياضيات في الدراسة الثانوية . فالرياضيات مادة صعبة ، يقضي الاستاذ فيها ساعة التعليم ، وكأنه ينحت من صخر ، ويستمع اليـه الطلاب ، وكأنهم يعاكسون تيار النهر . اما محمد علي الجزائري ، فأشهد انه قد كانت له طريقة ذللت الصخر ، وسهّلت الصعب . وما زلت احفظ عنه حتى اليوم (الكسر الدوري) .

ادركناه وقد حَنَت السنون ظهره ، ولكنه بقي ثابت الخطى ، قوي العزيمة ، بعيد الهمة ، نشيطاً كأحسن ما يكون النشاط ، بَرًّا بالطلاب ، محبباً اليهم ، مهيباً بينهم .

وُسِّدت اليه ادارة مكتب عنبر ، في زمن كانت تغلي فيـه البلاد ضد سلطات الانتداب ، وكان الطلاب روح الغليان . تغلبوا عليه في الاضراب مرة ، وتغلب عليهم في العدول عنه مرة . وما كان في تغلبه الا خائفـاً عليهم ، محاذراً وقوع الاذى فيهم . كان الطلاب قد ازمعوا مرة ان يضربوا ، وكان قانعاً ان الامر الذي يريدون ان يضربوا من اجله تافه . وكانت سلطات الانتداب الفرنسي تشتد في معاملتها للمتظاهرين دون رحمة . فلما عرف ما ازمعوا عليه ، نزل من برجه ووقف بنفسه امام الباب الخارجي . انني لا يمكن ان انسى هذا المشهد العظيم . لم يكن محمد علي الجزائري يومئذ مديراً لمدرسة ، وانما كان اباً قد فاضت نفسه بالرحمة . وقف امام الباب ، وقـد حسب ان الطلاب سيهابون وقفته ، فلا يقتحمون الباب ، ولكنه رآهم قد اقتربوا منه ، فنهاهم عن الاقتراب ، فأبطؤوا ولم يتراجعوا ، فلما احس دنوهم ، لحظ مكنسة (مقشة) طويلة ، فحملها . ولكن الطلاب لم يحسبوا لها حساباً ، فلما اقتربوا منه اهوى بها عليهم فابتعدوا . واني لأراه اليوم وقد حمل المكنسة ، وهو يلوح بها ذات اليمين ، وذات الشمال ، والطلاب يكرون ويفرون ، والشيخ المقوّس الظهر يدافعهم عن الباب ، خشية ان يصيبهم اذى الجيش الفرنسي اذا خرجوا ، حتى تغلب عليهم وحده ، واعادهم الى دروسهم .

ان لوحة هذا المشهد ماثلة في ذهني حتى اليوم ، اعود اليها فلا ارى فيها الا الابوة الرحيمة ، ولا ارى ان مكتب عنبر كان مدرسة ، وانما كان بيتاً ، تجلت فيه رحمة الآباء بالأبناء .

ولقد مرت بي وهو مدير لمكتب عنبر حادثة لن انساها . كان اهلي قد ابتاعوا لي في مطلع موسم شتاء معطفاً جديداً . وفي اليوم الاول الذي لبسته فيه ، جذبني أحـد رفاقي من قبته ، فمزقها . حزنت لذلك حزناً عميقاً ، فالمعطف جديد ، وانا به فرحان ،

فما لهذا الرفيق قد آذاني ؟ وخشيت تأنيب اهلي في الدار ، فما كان ممكناً ان يمر مثل هذا الحادث ، دون ان أؤنّب على طيشي ، لا سيما وان المعطف جديـــد . واخذت ابحث كيف اتدبر الأمر ، حتى اهتديت الى طريقة خيّلت اليّ طفولتي انها منجية . لقد دخلت الدار ، وانا احمل المعطف على يدي، لأخفي تمزيقه، على الرغم من شدة البرد ، وطويته ، وقررت ان اودعـــه في الصباح الباكر لدى رَفّـاء في اول سوق الأروام اسمه (فهمي الرتا) — وكنت زبوناً لديه معروفاً لكثرة ما اودعت لديه من ثياب مزقها اللعب ليرفوها — واسترد معطفي في المساء ، وبهذا الشكل اتجنب تأنيب الأهل . خرجت من البيت في الصباح الباكر ، واذكر انني وصلت الى دكان فهمي الرتا في الساعة السابعة والنصف، فوجدت الدكان مغلقاً ، فاضطربت.ولحظت الى جانب الدكان رجلاً قاعداً ، يلفف اوراق الطهارة ، اعرج الساق ، وقد مد عصاه الى جانبه ، فقلت له : عمي ! هل انت باق حتى يفتح فهمي الرتا ؟ قال : نعم . فخلعت معطفي دون اي تفكير ، وقلت : هل اذا رجوتك تسليمه اليه لرفوه تفعل ؟ قال : تكرم يا بني . قلت : ارجو ان تعلمه انه لظافر ، وانني سأمر في المساء لاستلامه . قال : ان شاء الله . وسلمت اليـــه المعطف ، وانطلقت الى المكتب فرحاً بما اوتيت من حسن الحيلة !

ومرت الساعة الأولى والثانية ، ولم افكر بمصير المعطف. فلما كانت الساعة الثالثة، خطر لي في بدايتها ان هذا المجهول الذي تسلّم المعطف ، قد يسرقه ، وانا لا اعرفه ، ولا يمكن الاهتداء اليه . ولقد كنت احاول تجنب التأنيب لتمزيق قبته ، فكيف انجو من التأنيب على اضاعته كله ؟ لقد باتت المشكلة اعقد ، واضحى الذنب اعظم ! ولا حاجة بي الى القول انني لم افهم شيئاً من الدرس ابداً، لأن القلق قد اخذ مني مأخذه . واخذت اترقب انتهاء الدرس، وقرع الجرس بصبر ذاهب . فلما قرع الجرس، وخرج الاستاذ، سارعت الى الباب : ودافعت الطلاب ، وانا لا ابالي بقوارس الكلم التي سمعتهـــا منهم لغلطتي . وصعدت الدرج كالمجنون ، حتى وصلت الى غرفة المدير ، فدخلتها بدون استئذان . وقد قرأ الاب الرحيم في وجه ولده الاضطراب والانزعاج ، فسأل : ما لك ؟ فرويت له القصة كما وقعت ، ورجوته ان يأذن لي بالخروج لهذا الامر الاضطراري ، ولأطمئن على معطفي . فقد كان الخروج ممنوعاً وقت الظهر كما اسلفت فيما سبق.فقال لي : ويحك ! كيف صنعت هذا ؟ قلت : هكذا حصل (هيك صار) . فأمر آذنه بمرافقتي ، ليفتح لي كاظم آغا الباب . وما كدت اجاوز الباب الحديدي حتى انطلقت كالسهم ، لا يقف في وجهي شيء . ووصلت الى اول الدخلة التي كان فيهـــا دكان

الرفاء ، مبهور الانفاس ، ألهث من الإعياء، وقد بلغ مني الاضطراب مبلغه . وقد رآني الرفاء من بعيد ، فلحظ ما بي ، فطمأنني باشارة فهمت منها ان المعطف قد وصل اليه، ووجدته بين يديه يصلح التمزيق الذي اصابه . عندئذ عادت اليّ سكينتي ، ورجوته ان يتمه حين خروجي من المدرسة . وعدت ادراجي هادئاً ، وقررت ان اتناول الغداء في (مطعم أسدية) ، وان أرفّه عن نفسي بعد ما اصابها . وما زلت اذكر ان الغداء كلفني يومئذ ربع مجيدي ، وكان في حساب الطلاب شيئاً كثيراً .

وصلت المدرسة ، وقد نسيت الحادث كله ، كما نسيت المدير الذي امرني ان اعود اليه لأطمئنه عمّا يقع معي . ودخلت الصف ، فما كاد درس الساعة الاولى بعد الظهر ينتهي حتى رأيت آذن المدير ينتظرني على باب الصف ويقول : المدير يريدك . فلما دخلت عليه قال : ماذا تم ؟ قلت : وجدت المعطف . قال : و لِمَ لم تعد مباشرة اليّ لتخبرني ؟ وما ادري بماذا اعتذرت . فلما قرأ الاطمئنان في وجهي ، اخذ في اسداء النصح ، ، بكثير من الرفق واللين ، واني لألمس نبضات قلبه الكبير ، وانا اخط هذه الكلمات .

اين في هذه الايام مثل هذا الرجل الذي حفظ لي معطفي ؟

واين في هذه الايام من يرعى كل شأن من شؤون الطلاب ، فيذكر ما ينسون ، ويفطن الى ما عنه يغفلون ، ويعلمهم ما يجهلون ؟

هذه يا سيدي كلمة موجزة عن بعض فضلك ، ارجو ان تنوب عن تقبيلي يديك ، وان تقرأها او ان تقرأ لك وانت في بيتك لا تغادره . فما كنت مديراً لمدرسة، وانما كنت صاحب مدرسة في التربية والتعليم[1] .

مدينة الجزائر ١٩٦٢/١١/٤

---

١) اختاره الله الى جواره في الثالث من شباط ١٩٦٤ ، تغمّده الله برحمته .

جميل صليبا

شخصية جذابة قوية . أحب التعليم . أدخل الفلسفة الإسلامية في المناهج

نشأ في مكتب عنبر طالباً ، ثم عاد اليه استاذاً . ولعل ذكرياته الشخصية عنه في فترة الحكم الفيصلي خاصة ، التي سمعت شيئاً منها ، من اعظم ما يمكن ان يدوّن في تاريخنا الاجتماعي والسياسي .

ربعة بين الرجال ، هادئ الطبع ، رضيّ الخُلق ، يميل الى التأني في كل شيء ، قليل المزاح مع طلابه ، وان كان يطرب للنكتة الحارة .

علّم الفلسفة . وقد سبقه الى تعليمها المرحوم سعيد البحرة ، الذي حاول ان يؤلف في علم النفس الحديث ، فكانت محاولته هذه باكورة التأليف في هذا العلم الجديد على العربية . والفلسفة — وقاك الله من متناقضاتها — درسٌ لم يكن يعرفه الطلاب ، الا في الصف الاخير ، خلافاً لجميع الدروس الأخرى التي كانوا قد عرفوها وألفوها في جميع صفوف الدراسة الثانوية أو الابتدائية ، فاذا ما اقبلوا عليها ادهشتهم جدتها ، وأخذوا بطرافة موضوعاتها. ولقد كنا نستأنف الدراسة كل سنة ، في مطلع العام الدراسي ، بشيء من التثاقل والكسل ، لأن بقايا الحرّ في اواخر ايلول تدعو الى فقدان النشاط ، ولا سيما بعد عطلة صيفية استمرت اشهراً، ولم يكن بد من ان تمر اسابيع حتى يرجع ما انقطع ، فاذا اجتزنا البكالوريا الأولى ، ورأينا انفسنا في صف الفلسفة ، لم نشعر الا بالرغبة في الاستزادة من هذا الدرس الجديد ، فما كانت ساعاته الأولى الا باعثة على النشاط ، وحاثة على المضي فيه . ولذلك عوامل : منها ان الطلاب يصلون الى صف الفلسفة ، وقد بلغوا مبلغ الرجال او كادوا . ومنها هذه الجدة الشائقة التي يرونها في هذا العلم . ولكن ابلغها في نظري ، هو شخصية جميل صليبا .

لقد عرفت فريقاً من الاساتذة يسعى الى اغتصاب انتباه الطلاب بنكتة يمهّد بها للدرس ، او يأتي بها في منتصفه ، ليجدد نشاطهم . فاذا ما انقضت النكتة عاد الدرس الى رتوبه الممل .

وعرفت فريقاً يكره الطلاب على الانتباه بجده الكامل ، وهو انتبـــاه منقوص او ظاهري ، قد لا يؤتي ثماره المطلوبة في الفهم عن الاستاذ .

وعرفت فريقاً يمنحه الطلاب انتباههم لجاذبية في شخصيته ، وقد يكون هذا النوع من الانتباه وسطاً بين المثمر والعقيم .

وعرفت فريقاً ينتبه اليه الطلاب ، لأن معظم الدرس ينقضي في الاستطراد ، والطلاب مولعون غالباً بهذا الاستطراد ، لأنه يخرجهم عن صعوبة التعلم ، وما يقتضي له من تتبع وحفظ .

اما استاذنا جميل صليبا ، فقد كان انتباه الطلاب في دروسه عفوياً ، يجذبهم اليه ما تجمع فيه من صفات الأستاذ الكامل :

فهو قد اتقن المادة التي يعلمها ، حتى حفظهـــا عن ظهر قلب ، ولا شيء يدعو لاحترام الطلاب لأستاذهم ، مثل اعتقادهم بأنه متمكن في علمه ، لا تخفى عليه خافية .

وهو فصيح اللسان ، جذاب اللهجة في الأداء ، تستمع اليه ، فتعجب من هذه الطلاقة الرائعة ، التي ندر ان متع بها الكثيرون .

وهو صحيح اللغة ، بليغها ، حسن اختيار الألفاظ ، موفق في تركيب الجمل ، فاذا اصغيت ، حسبت ان جميل صليبا قد كتب الدرس ، ثم حفظه من ألفه الى يائه .

كان يقرر الدرس متمهلاً ، وكنا نستطيع ان نكتب عنه اكثر ما يقرر ، فلم يكن في ايامنا كتب مطبوعة . وكنت اعود الى ما كتبت ، فأرى انه محاضرة كاملـــة ، لا تحتاج الا الى قليل من اللمسات ، لتنشر في ارقى مجلة من مجلات العلم .

وهو مسلسل الفكر ، اذا ابتدأ في تقرير موضوع ، ندر ان يشط عنه ، على الرغم من ان الفلسفة نفسها مادة قد تدعو الى الابتعاد عن اصل الموضوع . فاذا ما وقع لـــه هذا ، وقل ان يقع ، رأيته قد عاد الى موضوعه من النقطة التي استطرد منها .

وهو محب لاختصاصه ، حباً غلب على مزاجه. فاذا ما كانت له ساعتان متعاقبتان ، او ثلاث ، ورأى في نهاية الساعة الاولى ضرورة الاستمرار في الدرس لئلا تنقطع عليه

السلسلة ، حرم نفسه ، وحرم طلابه من الاستمتاع بالفرصة ، واستمر واقفاً ثلاث ساعات ونصف الساعة ، دون تلعثم او تلكؤ ، ودون تعب او ملل .

وهو قوي الشخصية ، استطاع ان يفرضها على الطلاب ، بما اوتي من هذه المزايا ، وبما رزق من غيرها .

وهو ذو وجدان مسلكي نابض بالحياة . فاذا اتفق ان لاحظ في آخر السنة ان البرنامج المقرر لم يستكمل ، امر طلابه بالمجيء قبل الدوام الرسمي بساعة ، لئلا يفوتهم شيء من العلم . وكم كنا نضيق بهذه الساعة المبكرة ، لأنها كانت تقتضينا ان نكون في الساعة السابعة صباحاً في الصف ، وكم رأيناه قد سبقنا اليه !

انني لن انسى الساعة الاولى التي قرر فيها (المعرفة العامية والمعرفة العلمية) . كانت هذه الساعة نقطة انطلاقه الأول في دخوله ، هو ودرسه ، الى قلوبنا .

كان برنامج صف الفلسفة مطابقاً لما هو مقرر في فرنسا : علم النفس ، والمنطق ، والاخلاق ، وما وراء الطبيعة ، وعلم الجمال ، والنصوص الفلسفية . وكانت النصوص الفلسفية المقررة لفلاسفة الاغريق وغيرهم من الفرنجة . وجاهد منذ اليوم الاول لأن يضيف اليها نصوص الفلسفة الاسلامية ، وكانت سنتنا (١٩٣٣) هي السنة الاولى التي وفق فيها لهذه الاضافة ، فقرأنا عليه : المنقذ من الضلال للغزالي ، وحي بن يقظان لابن طفيل ، ونصوصاً مختارة لابن خلدون .

ولست ادري لماذا ترك (ابن سينا)، وله به غرام خاص، وقد كانت اطروحته عنه. كان فرحه بهذا الدرس لا يَعْدِلُه فرح . وكان يعمد في كثير من الاحيان الى مقارنات مفيدة بين الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم من قدماء الفرنجة ومحدثيهم . وكيف لا يفرح بهذا النصر ، وهو ابن مكتب عنبر ؟

واحدث درساً، هو ابو عذرته ايضاً: ذلك هو ترجمة نصوص من الفلسفة الاسلامية الى الفرنسية . وكم لقي ولقينا من صعوبات في حل طلاسم الفكرة اولاً ، ثم في نقلها الى الفرنسية ثانياً .

اذا كانت الفلسفة الاسلامية قد دخلت الى مكتب عنبر ، فان الفضل في ذلك يعود اليه ، وانه لفضل عظيم ، لا سيما في الحِقْبَة التي كان فيها مستشار المعارف الفرنسي هو الآمر الناهي .

احب التعليم ، ووجد فيه لذة لا تعدلها لذة . فلقد لقيته مرة وحده في مقهى

المهاجرين ، بعد ان ربطتني به رابطة الصداقة . كان ذلك عام ١٩٣٥ ، وقد نقل من التعليم ، وعيّن مديراً للتعليم الثانوي في وزارة المعارف . كان الألم الذي يعانيه من هذا النقل عميقاً ، وظاهراً . واذا كنت استطيع ان انقل على هذا الورق اقواله ، فاني عاجز عن نقل تعابير وجهه . قال : كنت أَفِدُ على الصف في اول العام الدراسي ، فاذا انا مع اربعين او خمسين عقلاً ، كلها صفحات بيضاء ، استطيع ان انقش فيها ما اريد . فاذا ما شارف العام على الانتهاء ، رأيتني امام هذه العقول ، تناقش وتجادل ، وتصحح وتخطئ ، وتبني وتهدم ، وتوافقني وتخالفني ، وتعيد اليّ ما اخذت مني . هذا اعظم ما يمكن ان يفعله الانسان .

أرأيت أعظم أو أجلَّ من الذي   يبني وينشئُ أنفساً وعقولا

اما اليوم ، فانا في احد دواوين الوزارة ، اكتب ، وادرس ، واقترح ، واحاول الاصلاح ، وارى ان معظم جهدي ضائع ، فأين ما انا فيه اليوم ، مما كنت فيه بالأمس؟

ثلاثون سنة مرت ، لم تزدني الا حباً لجميل صليبا ، واعجاباً به . ولو كان لي ان اقدم عليه احداً من اساتذتي ، لما قدمت الا فارس الخوري رحمه الله ، ومن مثل فارس الخوري في دنيا العرب ؟

باريس ١٩٦٢/١١/١٣

بَقِيَّةُ الأَبْطَال

ولقد كان لنا في مكتب عنبر اساتذة آخرون ، اسدوا الينا فضلاً كبيراً ، واخذنا عنهم علماً غزيراً. وكل واحد منهم اهل لأن يكتب عنه فصل كامل، وفاءً لأياديه علينا وعلى من سبقنا ولحقنا ، وتحدثاً عن ذكريات ما زالت غضة في قلوبنا . وارجو ان يغفر لي اساتذتي الباقون هذا الجمع بينهم في فصل واحد ، فما اظن انهم يكرهون ذلك ، وقد جمعت بينهم جدران مكتب عنبر السنين الطوال .

جودة الكيال

كان استاذنا الدكتور جودة الكيال ، مشرق الوجه دوماً ، سريع الابتسام ، حاد النكتة ، فصيح اللهجة ، مستقيم اللسان ، حسن الأداء، متقناً كل الاتقان للمادة التي يلقنها الطلاب . اخذنا عنه التشريح والغريزة وحفظ الصحة والنبات والحيوان . كان اذا استعان بالمخبر والتجارب في شرح الدرس،استطاع ان يصل الى عقول الطلاب وأفهامهم عن اقرب طريق . وكانت المواد التي يدرسها صعبة على الطلاب ، لما فيها من ألفاظ اعجمية ، ولكنه كان من اقدر الاساتذة على تبسيطها ، وربما حفظنا الدرس من فمه للمرة الاولى دون حاجة لمراجعة او استذكار . وكان اذا شاء تبكيت طالب خاطبه بالجمع ، امعاناً في التهكم الأدبي . اتفق ان كان له درس بعد الظهر ، وكان في الصف طالب نؤوم ، ولا بد للاستاذ من ان يتأذى من نوم احد طلابه خلال الدرس . فاذا ما

لاحظ انه قد نام ، كان يناديــه باسمه ويقول له : (نمتو) ، فيضحك ، ويضحك الطالب ، ويضحك الطلاب .

ولقد لاحظ مرة ان احد الطلاب كان يكتب من دفتر ، وهو يلقي الدرس ، فساءه ان لا ينتبه الى ما يقـــال ، فلم يزد على ان ناداه باسمه وقال له : (خلصتوا من تدبيج المقالة) ! وهكذا كان قريباً من قلوب الطلاب ، حبيباً اليهم . ولقد تميز استاذنا الكيال بين اقرانه من اساتذة العلوم في مكتب عنبر بثقافته الاسلامية ، وتمكنه من العربية . اما الوطنية الحقة ، فتلك صفة جامعة لكل من عرفنا من اساتذتنا .

يحيى الشمّاع

وكان زميله وتربه استاذنا الدكتور يحيي الشماع استاذاً للكيمياء ، واكثر ما كان يشق على الطلاب حفظ رموزها . كان مرحاً ، طلق الوجه ، صحيح اللغة . والكيمياء درس لا يمكن ان يفهم الا في المخبر ، ولا يمكن ان يحفظ الا بالرجوع الى (النوط) . وقــد اتفق في ايامنا ان اعانه في المخبر احد الأساتذة الفرنسيين فترة من الزمن ، واسمه (بيو[1]) Pieux ، وكان ذا اختصاص . فكنا نقضي ، على الغالب ، نصف الدرس ونحن نستمع الى استاذنا الشماع ، فلا ندرك الا القليل ، لغرابة المادة وصعوبتها ، وننتقل الى المخبر نصف الدرس الثاني ، فنرى التجارب العملية لما سمعنا . واستقل فترة اخرى بالنظري والعملي .

وكثيراً ما تضمن درسه طرائف العلم ونوادره . حدثنا مرة ان علماء الكيمياء في فرنسا اوائل هذا القرن ، استطاعوا ان يصنعوا مادة (الزبدة) ، بشكل خفي على الناس انها ليست طبيعية . وقد كان لأحد هؤلاء العلماء صلة ببعض التجـــار ، فاستفاد من قدرة العلم ، واخذ يصنع الزبدة ، لقلة نفقاتها . وما لبث المسؤولون عن قمع الغش ان اكتشفوا ذلك . وقامت ضجة كبرى في مجلس النواب ، واستجوب وزير التموين ، وصدرت الصحف اليومية تحمل عناوين عريضة فيها :

فليحيَ الغشاشون ، ولتسقط الكيمياء .

Vive les falsificateurs, à bas la chimie.

---

١) راجع صفحة ٥٩ من هذا الكتاب .

وقد ضحك استاذنا واضحكنا ، من هذه الدعابة العلمية ، لا سيما وانه استاذ الكيمياء ، التي نادت الصحف بسقوطها !

حسن يحيى الصبان

واخذنا دروس التاريخ عن استاذنـــا حسن يحيى الصبان . كان من العسكريين المتقاعدين الذين دفعوا الى التعليم دفعاً . وكانت ابوّته الرحيمة أبرز مزاياه التي عرفهـــا طلابه حتى اليوم فيه ، مد الله في عمره المبارك . كان يشعر حقاً انه اب لهؤلاء الطلاب ، فكان لا يخاطبهم خلال الدرس وخارجه الا بقوله (ابني) ، حتى حفظها الطلاب عنه ، وربما عَنَوْهُ في أحاديثهم إذا قالوا (ابني) ، لكثرة ترددها على لسانه . احب الطلاب حباً لا يضيق معه بغبيهم او بليدهم او كسولهم . واحبوه حباً لا يرون معه الا الرجـــل الانسان ، والأب الرحيم . اما وطنيته الصادقة اللاهبة ، فلا احدثك عنها اليوم ، وانما اتركها الى مكانها في ذكرياتي عن السياسة في مكتب عنبر .

عبد الغني الباجقني

ورجل آخر علّم التاريخ والجغرافيا ، وترك اعمق الآثار في نفوسنا حتى اليوم ، هو عبد الغني الباجقني . كان اكثر ما تلقينا عنه ، درس التاريخ الاسلامي . واشهد انه قد حلّق فيه واجاد ، لأنه كان يلقي الدرس ، وقلبه ينبض بحوادثه ووقائعه ، بلغة عربية فصيحة ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً . وكان هذا الدرس سبيلاً طبيعياً لتلقين الطلاب الثورة على الظلم ، وتقوية روح التمرد على المستعمر في نفوسهم . فكم قارن بين حكم وحكم ، وكم ناقش اوضاعاً غضب عليها العرب . ولعل فكرة الامبراطورية العربية قد تلقيناها ، اول ما تلقيناها ، ونحن فتيان ، عن هذا الاستاذ العربي ، خـــلال دروس التاريخ الاسلامي . اما دروس الجغرافيا فقد حرص فيها على تلقين الطلاب اسماء البلدان ، كما جاءت في كتب العرب الاقدمين في تقويم البلدان . فما عرفت مثلاً انه قال (كريت)

ابداً ، وانما كان يقول (اقريطش) وما سمعت منه مثلاً انه قال (سيسيل) ، وانما كان حريصاً على ان يردد (صقلية) . كذلك عرف العرب اسماء هذه البلدان ، وغيرها ، فما ينبغي لنا ان نلفظها الا كما عرفهـــا العرب في كتبهم . ولكنه كان في الوقت نفسه يرشد الى اسمائها الأعجمية ، ليسهل على الطلاب معرفتها في المصورات (الأطالس) الأجنبية التي كانت بين ايدينا .

هاشم الفصيح

وتعلمنا الفيزياء على يد استاذنا هاشم الفصيح ،وكنا من اوائل من اخذ عنه هذا العلم. كان شاباً ، ممتلئاً بالقوة والنشاط والحركة ، لا تكاد الارض تحمله ، لعصبيته ، وكرهه للجمود . وكان حديث العهد بالتعليم ، لم يكتسب وقار الاساتذة الكامل ، ولهذا كان يرى نفسه استاذاً للطلاب ورفيقاً لهم معاً ، وكان ذلك يحببه الى نفوسهم ، ويقربه منهم . كان يقبل على السبورة فيلقي الدرس ، وهو يكتب عليها ، والطلاب يكتبون عنه . ولقد كتب مرة معادلة فيها كثير من الأصفار ، فكتبها جميعاً بالفرنسية ، دون انتباه ، لغلبة دراسة الفرنسية عليه ، وبعد ان انتهى من الكتابة انتبه ، فاذا هو يضحك ويغضب ويقول : ما هذا الصفر باللغة العربية ؟ انه نقطة ، ان رسمه غير معقول ، اطلبوا الى المجمع العلمي تغييره !

ثم اخذ روح المربي يتغلب عليه . اذكر اننا دعينا مرة للعودة الى المكتب بعـــد الغروب في يوم من ايام رمضان لاجراء تجارب في بحث الضوء ، فما كان يمكن ان تستقيم هذه التجارب في وضح النهار . وخرجت بعد التجارب مع الصديق العتيق خليل الفرا ، نجوب الشوارع في ايام رمضان ، والسيجارة في يدي ، واذا بأستاذنا الفصيح يلمحها ، فخجلت . وكنت من اصغر الطلاب سناً ، فكان مكاني مع الاخ الفرافي المقعد الاول ، فاذا باستاذنا يقترب منا في اليوم التالي ويقول للفرا بصوت خافت : كم سيجارة تدخن في اليوم ؟ فخجل واضطرب ، واجاب انه لا يدخن . فالتفت الي وقـــال : وانت ؟ قلت : وانا لا ادخن . قال : عيب ، ما زلتم صغاراً ! وتمنيت في تلك اللحظة ان تبتلعني الأرض ، فلقد كنت اعلم انني انا المقصود بهذا التأنيب .

عزّة الرّفاعيّ

وكان عزة الرفاعي استاذنا في الرياضة. كان ضابطاً ايضاً، ولكنه لم يسلك بنا طريق الشدة ، ولا عرف الينا غير اساوب الرفق ، وان حدثنا في بعض الأحيان كيف عامله اساتذته في اول عهده بالجندية ، ليرينا ما نحن فيه من نعيم . كان يروي القصص في الأيام المطيرة ، التي لا يتسنى فيها للطلاب اقامة الدرس في الباحة ، بكثير من العصبية والقوة . وكم حدّثنا عن صلة الرياضة بالأخلاق ، لأنه كان حقاً استاذاً في مكارم الأخلاق ، قبل ان يكون استاذاً للرياضة .

رشدي بركات

والمرحوم رشدي بركات ، كان طالباً في مكتب عنبر ، ثم عاد استاذاً للرياضيات ، بعد ان اختص فيها . تميز رحمه الله بدماثة الخلق ، والرقة مع الطلاب ، وهدوء الطبع ، والحرص على تفهيم من لم يفهم من الطلاب ، باعادة الدرس اكثر من مرة في اكثر الأحوال . ادركته في الصف الاخير ، فلم اعرف عنه الشيء الكثير .

عاصم البخاريّ

اخذنا عنه دروس الترجمة في اللغتين العربية والفرنسية . وهو ابن العلاّمة الشيخ سليم البخاري . رقيق الحاشية ، لطيف المأخذ ، كثير الأدب مع طلابه وزملائه ، خافض الصوت . كان يحضّر درسه دوماً، فاذا كانت الترجمة من الفرنسية الى العربية ، حرص على صحة العبارة ، وسلامتها ، وربما عمد الى استشارة زملائه اساتذة العربية ، دون ان يخفي ذلك على طلابه . ذلك أثر من آثار بيت العلم الذي غرس في روحه .

كامل نصري

مديد القامة ، خفيف الظل ، رحب الصدر ، جم الأدب والتهذيب ، واسع المعرفة باللغات ، اختص بمقاييس الذكاء ، ولكنه علّمنا تقويم البلدان (الجغرافيا) . واضح الطريقة ، سهل الأسلوب ، اعتمد كثيراً على المصورات (الخرائط) في تلقين الدرس ، فكان اقرب الى الأفهام . لم يعرف عنه عنف مع احد من الطلاب او الاساتذة. متمدن في طبعه ، وبحكم اللغــات الكثيرة التي عرفها : التركية والفرنسية والانكليزية والألمانية اضافة الى العربية . ولست ادري اذا كان يعرف غيرها ايضاً . ولهذا الطبع الحميد أثر واضح في معاملته للطلاب .

كامل عيّاد

شخصية فريدة بين الاساتذة الذين عرفتهم . اخذنا عنه التاريخ في السنة الأخيرة ، وكان ذلك اول عهده بالتعليم . سبقته شهرة واسعة انه اول من حاز شهادة في فلسفة التاريخ من المانيا ، ولم يكن مكتب عنبر – على ما يظهر – المجال المعقول لعلمه وكفايته ، لا سيما وان في لسانه لكنة لم تفارقه حتى اليوم ، وان لهجته في الخطاب غريبة عن لهجة ابناء الشام . كثير حركة الجذع حين القاء الدرس . ضحوك ، حتى حين مهاجمته ، وقد قربه هذا الطبع من قلوب الطلاب . حر في آرائه وافكاره ، لا يبالي تقليداً ولا عرفاً . أولع بعض الطلاب بمناقشته في مواضيع استطرادية ، فكان يرحّب بها ، وربما افحمهم ، وربما افحموه ، فما كان يبالي الا بحرية البحث . كان ذلك شيئاً جديداً على مكتب عنبر غير مألوف ، وذلك من مزاياه التي أسجلها له بكثير من التقدير .

عبد الوهاب أبو السعود

وتلقينا الرسم عن المرحوم عبـــد الوهاب أبي السعود ، الذي جمع التمثيل الى الرسم ، وكان له فضل في النهضة المسرحية . استطاع ان ينمي الذوق الفني وان يتعهده بالصقل والترغيب ، بما ملك من وسائل . وكانت له اندفاعات عنيفة في المسائل الوطنية ، والقضايا القومية ، يعلو فيها صوته ويتهدج ، يقذف بها دون رهبة او خشية .

ممدوح الشريف الشهير بالخطاط

وكان في ايامنا درس لحسن الخط ، اختير له ابرع فنان في العالم الاسلامي ، هو المرحوم ممدوح الشريف ، الذي تزهو الفنون الجميلة باسمه حتى اليوم ، وما زالت لوحاته آثاراً يقتنيها اصحاب الذوق السليم . علمنا في الصف السابع ، وكان فيـــه اكثر من تسعين طالباً . وكان يقتضي الطلاب ان لا يكتبوا الا بالقلم القصب . وقد رأى واجبه في ان يبري هو نفسه لهم اقلامهم ، فكان يطوف على التسعين ، فلا تكاد تنقضي عشرون دقيقة حتى يكون قد اتمها ، وتلك من معجزاته . عرفته في طفولتي ، في المدرسة الكاملية ، قاسياً على الطلاب ، وما زالت في اذني اليمنى آثار من فرك اصابعـــه . اما في مكتب عنبر ، فقد عدل عن الشدة الى اللين . فقد اسم عائلته بين الناس ، وغلب عليه (ممدوح الخطاط) ، فلم يكد يعرف الا بهذا الاسم ، ومرد ذلك الى تفوقه المدهش في الخطوط .

***

هؤلاء هم اساتذتي العرب الذين ادركتهم في مكتب عنبر ، ما اظن اني نسيت احداً منهم ، واذا كنت قد أُنسيت ، فاني للاستدراك والاعتذار مستعد . اين منهم ما نسمع وما نرى في هذه الأيام ؟ ارجو ان تكون هذه التحية التي ارسلتها اليهم معبرة عن عرفاني للجميل الذي أسدوه اليّ والى الجيل الكامل الذي نشأ على ايديهم . رحم الله الذين غادروا هذه الدار الفانية ، ومد في عمر الباقين منهم .

الأَسَاتِذَةُ الْفَرَنْسِيُّونَ

ولكي تكون اللوحة كاملة عن ذكرياتي في مكتب عنبر ، لا بد لي ان احدثك عن الاساتذة الفرنسيين الذين عرفناهم فيه ، ففيها بعض الطرائف التي لا تخلو من متعة او فائدة .

وقع الاحتلال الفرنسي في الرابــع والعشرين من تموز ١٩٢٠ ، الا ان الفرنسيين تهيبوا مكتب عنبر ، لأسباب ستراها في القسم السياسي بعد حين ، فلم يدخلوا اليه استاذاً فرنسياً الا عام ١٩٢٤ . وتلك ظاهرة تستحق التسجيل ، لأن فرنسا قد جاءت بمستشاريها الى دوائر الدولة ووزاراتها منذ اليوم الاول للاحتلال .

كان اول الفرنسيين الذين وفدوا على مكتب عنبر رجلاً قصير القامة ، طويل اللحية ، وَخَطَها الشيب ، اعرج الساق ، اسمه (ميشيل) Michel . سكن في دار مواجهة للمكتب تماماً ، للعاهات الجسدية التي رزئ بها ، فوفر على نفسه مشاق الانتقال . لم اتلق عنه شيئاً من العلم ، فلا اعرف عن كفايته شيئاً ، وانما كنت ارى الطلاب ينظرون اليه شزراً ، لأنه دخيل على هذه المؤسسة العربية . ولم تطل مدته ، اذ غادر المكتب قبيل نشوب الثورة السورية عام ١٩٢٥ .

ولما اندلع لهيبها جيء للمكتب بثلاثة من الجنود ، كانوا يقيمون فيه ليلهم ونهارهم ، لا يفعلون شيئاً ، الا اذا غاب احد الاساتذة لسبب من الاسباب ، فكانوا يعهدون الى واحد منهم بمراقبة الطلاب . ويغلب على ظني انهم لم يكونوا من سلك التعليم . ما زلت اذكر ان احدهم كان يُسمى (لافورس Laforesse) ، راقبنــا مرة ساعة كاملة ،

وقد حاول بعض الطلاب ان يسأله عن معاني بعض الالفاظ ، فكان يجيب باقتضاب . وبعد قليل من الاقامة خلعوا الالبسة العسكرية وارتدوا الالبسة المدنيــة ، واعتمروا بالقبعات . والظاهر انهم خرجوا مرة ، وبينما هم في الطريق ، داهم الثوار المدينة ، فوقع الاضطراب في الاسواق ، فخلعوا قبّعاتهم وركضوا مـــع الراكضين ، وعلى اثر ذلك اعتمروا بالطرابيش . وقد رأيتهم بأم عيني مرة في سوق الحميدية يركضون مع الناس ، وطرابيشهم على رؤوسهم .

وبعد وفاة المرحوم صالح التونسي ، جيء لنا بأستاذ ، كان يقوم بخدمته العسكرية ، اسمه (بو Baud) . كان قصير القامة ، كثير الكلام ، ثرثاراً ، اهتم بالمفردات كثيراً . ومن عجيب امره انه كان لا يلبس الجوارب حتى في الشتاء ، وقد سماه الطلاب (مسيو بلا جرابات) ، فكانوا لا يذكرونه الا بهذا الاسم . لم نستفد منه كثيراً ، لانه كان يعلم انه موقت الاقامة ، فكان وجدانه المسلكي ضعيفاً .

وفي عام ١٩٢٧ وفد على مكتب عنبر (تريس Tresse) وما زلت اذكر انه كان يلبس في ايامه الاولى البذلة الخاكي ، لفقره . ودخل بين الطلاب فوراً في الفرص يحدثهم بلطف وايناس ، ويقنعهم بأن تعلّم اللغات الاجنبية مفيد ، وان كل لسان بانسان ، وما درى ان اللغات الأجنبية تعلّم في مكتب عنبر منذ ان أنشئ ، وان الكراهية ليست للعلم ولا للغات ، ولكنها للاستعمار . لقد لُقّن قبل ان يجيء شيئاً عن جو مكتب عنبر ، فسلك الى قلوب الطلاب بادئ الامر الرفق واللين . وقد عرف منذ قدومـــه انه مدير التدريسات الفرنسية ، ولكنه لم يكن اهلاً لمثل هذا المقام . قيل انه كان معلماً ابتدائياً في فرنسا ، وسمعت من بعض الفرنسيين بدمشق انه كان معلم قرية ، لا يعرف اكثر من تعليم الألفباء . وقيل انه يهودي . والثابت انه كان عاجزاً من الناحية العلميــة . تولى تدريس تاريخ الآداب الفرنسية ، في وقت كان يُعوَّل فيه كثيراً على هذا الدرس في النجاح او الرسوب في فحوص البكالوريا ، ولم يكن يفقه شيئاً في هذا الموضوع العظيم ، فلم يأخذ عنه الطلاب قليلاً ولا كثيراً ، ومن درى من الطلاب شيئاً ، فانما دراه باعتماده عـــلى دراساته الشخصية . كان الدرس تافهاً ، لا يعدو كلمات قليلة ، ليس فيها زبدة ولا فكرة ، ولا رأي . وكنا حينما نقارن بين ما يتلقى رفاقنا الطلاب في المدارس الأخرى ، ولا سيما الاجنبية منها ، وما نتلقى نحن عن هذا الجاهل ، نعجب لاختياره رئيساً لأساتذة اجلاء ، معظمهم خير منه ، على الرغم من انهم ليسوا ابناء اللغة . وقد بدا هذا واضحاً

في يوم جاء فيه (بونور Bonoure) — وكان رجلاً عالماً، مستشاراً للمعارف في المفوضية العليا ، وهو اليوم استاذ في جامعة الرباط — جاء مفتشاً مع (راجي Ragey) مستشار المعارف في سورية ، فلم يستطع ان يخفي استياءه ونقـــده ، وان كنت لا اذكر اليوم موضوع النقد .

وكان لا يخلو من مكر ، ولا من خبث . فلما استد ساعده ، واستطاع تغيير البذلة الخاكي، ببذلة من الجوخ الانكليزي الفاخر ، وبعد ان رسخت جذوره في مكتب عنبر ، اخذ ينفث سمومه ، بأشكال مختلفة . وان اعمقها في نفسي أثراً تهكمه على بعض تقاليدنا وعاداتنا الشرقية او الاسلامية ، بشكل يمازجه العنف احياناً[1] . ولئن كان بعض ما كان يقول معقولاً ، ومما نشكو منه ، ومما شكا ويشكو منه العقلاء والمصلحون ، ولكنا لم نكن نتقبل منه هذا النقد ، لأنه لم يكن يقوله الا بلهجة الاستخفاف ، لا بلهجة الرغبة في الاصلاح . وكم كانت لنا معه وقفات اهتزت لها اركان مكتب عنبر ، على ضعفنا يومئذ باللغة الفرنسية ، وعجزنا عن التعبير فيها !

وفي عـــام ١٩٢٩ كان (غولميه Gaulmier) يؤدي خدمته العسكرية ، فكلفوه بتدريس ساعات في دار المعلمين — وكان طلابها يومئذ يقيمون داخلين في مكتب عنبر ، وكانت بيننا وبينهم دروس مشتركة — فكنا نسمع منهم ثناء عليه — فلما اتم سنته غاب وعاد بعد سنين ليحل محل (تريس) . ادركته في صف الفلسفة ، فرأيت رجلاً آخر عمّا عهدت . فرنسي حر أصيل، عميق الثقافة، واسع الاطلاع ، حلو الحديث، تتدفق اللغة على لسانه كالموسيقى ، كأنه يقرأ من كتاب ، وربمـــا غلب عليه اسلوب

---

١) حدثني الصديق الاستاذ مختار الحفار ان (تريس) هـــذا تندر ذات يوم بالمشعوذين الذين يطفئون النار في افواههم ويغمدون الخناجر في سواعدهم . وقد حفظ الاستاذ الحفار هذا التندر بغيظ أليم ، إلى أن كان في عام ١٩٤٧ بباريس ، فرأى في أحد ميادينها المنظر نفسه : مشعوذون يطفئون النـــار بأفواههم ، ويغمدون الخناجر في سواعدهم ، فسأل عن (تريس) ، واهتدى اليه كاتباً في مدرسة (الفنون والصناعات) Ecole des Arts et Métiers . وبعد ان جددا تعارفهما قال الحفار : لقد زعمت ان بلادنا بلاد المشعوذين ، فهلا ذهبت الى حيّ كذا لترى فيه مارأيت في دمشق ؟ فبهت الذي كفر ،وشفى هذا المختار غيـــظ الكثيرين الذين آذاهم مكر (تريس) وخبثه ! مرحى يا مختار !

الخطيب ، جذّاب الشخصية ، بهي الطلعة ، لا يبالي باستعمار ولا بانتداب ، يقول الحق حيثما وجده ، وربما حرض الطلاب احياناً على الثورة . احبه الطلاب لانهم لم يروا فيه اية صورة من صور الانتداب البغيض ، وانما رأوا فيه الرجل الذي لا يبالي ، الى درجة الفوضوية احياناً .

كان يعجب من تخلفنا في اللغة الفرنسية وجهلنا بها ، ويتحرق على اتقاننا لها . ولكي يعطينا المثل الصالح ، اخذ في تعلم العربية بجد ونشاط . وسلك لتقوية اللغة عندنا ، اسلوب المحاضرات . فكان يعهد الى احد الطلاب ، مرة في كل اسبوع ، بتهيئة محاضرة في موضوع ، يترك على الغالب للطالب اختياره ، على ان لا يتجاوز القاؤه نصف ساعة . وكان يترك مقعده لهذا الطالب ، ويجلس هو بين الطلاب ، يستمع ويكتب ، حتى اذا انتهى الطالب من القائه ، احتل مقعده ، واخـذ في نقد المحاضرة اولاً ، ثم في شرح الموضوع كما ينبغي ان يشرح . واشهد انه كان منذ ذلك الحين (١٩٣٣) استاذاً محلّقاً ، استفدنا منه الكثير ، سواء من حيث اللغة ، ام من حيث الآراء والافكار . ولعل هذه الدروس الأولى في مكتب عنبر ، هي التي أهّلته لأن يكون اليوم استاذاً في كلية الآداب في استراسبورغ .

وفي احدى السنين ، جيء برجل اسمه (بيو Pieux)[1] ، قيل انـه يحمل شهادة الأجريجه في الفيزياء ، وكان يؤدي خدمته العسكرية ، فعهد اليه في مخابر الكيمياء والفيزياء ، وكان يأتي حيناً بألبسته العسكرية ، وحينا بالألبسة المدنية . كان متفوّقاً حقاً . انصرف الى المخابر فأحسن تنظيمها وتنسيقها ، على ضعفها وفقرها يومئذ (وما ادري حالها اليوم) فاذا هي كأحسن ما تكون المخابر ، او هي المخابر الحقيقية . كنا نقضي نصف الدرس في القاعـة نستمع الى النظري ، والنصف الآخر في المخبر ، نرى التجارب وهو يجريها ، فلم تخفق معه تجربة واحدة . وكنا نفهم عنه ، على الرغم من ضعفنا في اللغة ، لوضوح التجربة ، وقدرته على اجرائها مبسطة . فلما انقضت خدمته العسكرية ، جاؤوا لنا برجل اسمه (لاشه Laché) كان ابناً لأحد اعضاء مجلس ادارة شركة قناة السويس ، ولد في القاهرة ، وربي فيها ، ويتقن العربيـة كأبنائها ، حديثاً وكتابة وقراءة ، ولكنه لم يكن يتحدث الا بالفرنسية تعصباً . كان مختصاً بالفيزياء ايضاً ، ولكن شتان بينه وبين (بيو) . كان الأول عالماً ، وكان الثاني تلميذاً ، أفسد الثاني ما

---

١) راجع صفحة ٥٠ من هذا الكتاب .

أصلحه الأول ، فعادت المخابر سيرتها الاولى . حضرنا معه تجربة واحدة في الضوء ، فلم نفهم عنه شيئاً ، لا بالفرنسية ولا بالعربية . كان مدللاً على حكومته ، فوفرت عليه حياة الثكنات ، وما فيها من شظف العيش ، واختارت له بيوت العلم ليستريح فيها !

•

هذه كلمة الحق في اساتذتنا الفرنسيين ، وما ادري اليوم ، باستثناء (غوليه) ، اين اضحت ديارهم ، ولا كيف هي احوالهم ، لقد مروا بهذا البلد ، كما مر غيرهم ، وبقي مكتب عنبر ، كما بقي البلد واهله .

شهادة الأستاذ غولميه

لزملائه في مكتب عنبر

كان استاذنا (غولميه) من احرار الفرنسيين النادرين ، الذين وفدوا على البلاد ، ايام الانتداب . واظن انه كان يعرف مبادئ العربية ، قبل وصولـه الى سورية . فلما وطئ ارضها اخذ في التمكن من لغة العرب ، واكبر ظني ان جو (مكتب عنبر) ، وتقدير الأساتذة له ، واحترامه لهم ، قد عاون على وصوله الى مبتغاه . ومن آثاره القيمة ، التي تولت طبعها جامعة الصوربون Sorbonne (تاريخ الاستشراق في فرنسا L'histoire de l'orientalisme en France) ، وخاصة تحقيقه ونشره لكتاب (ڤولڤه Volvez) الذي سمّاه (رحلة الى مصر Voyage en Egypte) فقد اكسبته اقامته في سوريـة بضع سنوات ، حب العرب ، وتقدير ثقافتهم ، والاستمرار على خدمتها .

صدر بحثي عن (الاساتذة الفرنسيين في مكتب عنبر) في اواخر تشرين الثاني من عام ١٩٦٢ . وقد فوجئت ذات يوم برسالة يحمل ظرفهـا اسم كلية الآداب في استراسبورغ Strasbourg ، ألقاها ساعي البريد ، فسارعت الى فضها ، واغتبطت حينما عرفت ان صاحبها ، هو الاستاذ (غولميه) ، لأنني لم اعرف عنه شيئاً منذ ان غادر البلاد ، ولم يصلني شيء من اخباره . كذلك الدنيا تجمع وتفرّق ، ثم تعود فتجمع .

كانت الرسالة على قصرها تفيض بالحنين الى (مكتب عنبر) وأيامه ، ولعل خير ما اصنع ، هو ان امتنع عن التعليق عليها ، وان انشر بعض ما جاء فيها ، مما له صلة بموضوعنا . قال الأستاذ :

استراسبورغ ١٩٦٢/١٢/٣٠

صديقي العزيز

اری لزاماً عليّ أن أشكرك على هــذه الأسطر ، التي خصصتني بها ، المنبعثة من أعماق القلب ، (والتي تضمنت افراطــاً في المدح) . لقد قرأت مقالك في (الأيام) بكثير من الانفعال . ان هذا المقال قد اعاد الى ذاكرتي أناساً ، واشياء ، ومشاهد — أعاد اليّ شباباً كاملاً ، يؤسفني أنه أضحى بعيداً ... اين اضحت أيامنا الخوالي في (مكتب عنبر) العريق في القدم ؟ ان خير ما في صناعة التعليم ، هو الاستمساك بالشباب ، بفضل الصلة بالشبان ، الذين يرغبون في الاستماع الينا ، ولا ينسوننا !

Strasbourg 30-11-62

Cher ami,

Je tiens à vous remercier des lignes très cordiales (et trop élogieuses!) que vous m'avez consacrées dans vos souvenirs. J'ai lu avec bien de l'émotion cet article dans الايام . Cela m'a rappelé des êtres humains, des choses, des paysages — toute une jeunesse hélas lointaine... où sont les jours de jadis dans le vieux (مكتب عنبر) ? Le bon côté de ce métier de profeeseur est que l'on se maintient quand même jeune au contact de la jeunesse qui veut bien nous écouter — et ne pas nous oublier!

وقد اجبته على رسالته باللغة الفرنسية ، وها هي الترجمة لرسالتي :

دمشق في ١٩٦٣/١/١٥

استاذي العزيز وصديقي

لقد اغتبطت برسالتك التي لم أكن اتوقعها ، المؤرخة في ١٩٦٢/١٢/٣٠ ، والتي شكرتني فيها ، بكثير من اللطف ، على الكلمة التي نشرتها في جريدة (الايام) ، وفيها ذكرياتي وانطباعاتي عن مكتب عنبر .

لقد كانت رسالتك لفتة من استاذ حبيب ، بعثت علاقة بدأت في دمشق ، قبل أربع وثلاثين سنة ، ولن تمحى آثارها ابداً .

ان مكتب عنبر ، لم يكن مدرسة ثانوية ، بل كان مؤسسة لها تقاليدها واعرافها ، وحياتها الاجتماعية الخاصة ، ومفهومها الخاص عن العروبة والاستقلال . وهذا ما حاولت ان اكشفه من خلال ذكرياتي وانطباعاتي . ان الأثر المتواضع الذي ألفته ، سيظهر

قريباً ، وسأكون سعيداً بارساله اليك ، وبمعرفة رأيك فيه ، لا سيما وأن هذا المكتب ، قد كوّن جزءًا من حياتك ، لا بل من شبابك .

صدقني ، يا استاذي العزيز وصديقي ، انني حاولت ان ابحث عن الحقيقة ، دون غيرها . فاذا كنت تعتبر ان ما جاء في مقالي مديح لك ، فذلك لأنك كنت وما زلت أهلاً لهذا المديح . فها قد انقضت ثلاثون سنة من غير أن أراك ، أو ان أعرف شيئاً من اخبارك ، ولكن الأمر الاكيد هو ان تأثيرك عليّ كان شديد القوة ، بحيث لم تقو هذه المدة ، على طولها ، على ان تمحو هذا التأثير ، الذي ما زال طرياً ، وكأني غادرتـــه بالأمس .

وفي الاول من شباط ١٩٦٣ بعث اليّ برسالة اقتطف منها ما له صلة بمكتب عنبر ، قال حفظه الله :

استراسبورغ اول شباط ١٩٦٣

سيدي العزيز وصديقي

بورك فيك يا مكتب عنبر ، الذي أعاد لقاءنـــا ، والذي سيبقى في ذاكرتي نابضاً بالحياة ، على الرغم من ان معظم الزملاء الذين عرفتهم فيه ينبغي ان يكونوا قـــد نالت منهم الشيخوخة او اضحوا في جنان الخلد : عبد الحميد الحراكي ، عبد القادر المبارك ، سليم الجندي ، جودة الهاشمي ، وغيرهم كثيرون ، كانوا أسوة لي في بدء صناعتي التي مارستها على ارض الأمويين العريقة ! آه ! ما هذه الكآبة التي اعترتني في استعادة هذه الذكريات !

Strasbourg, le 1er Février 1963

Cher Monsieur et ami,

Que béni soit le *Maktab Ambar* par lequel nous nous sommes retrouvés et qui, dans mon souvenir reste si vivant, encore que la plupart des Collègues que j'y ai counus doivent être aujourd'hui bien vieux... ou au paradis: Abdul Hamid Hiraki, Abdel Kader Mabarak, Sélim Jundi, Jawdat el-Hachmi, tant d'autres qui furent pour moi des exemples au début de ma carrière sur la vieille terre des Omayyades: Ah, quelle mélancolie dans ces souvenirs !

وما ادري والله كيف أصف شعوري ، وانا اقرأ هذه الفقرة من رسالته الثانية ! لقد كانت الذكريات مشتركة بيني وبين هذا الرجل ، على الرغم من انـــه كان استاذاً ، وكنت طالباً . ويقيني ان (غوليه) لم يطلع الا على البحث الذي ورد ذكره فيه ، واذا هو يؤكد لي ، ما وقر في نفسي ، وما اعدته اكثر من مرة في هذا الكتاب ، من ان

اساتذة مكتب عنبر ، كانوا نموذجاً يحتذى . وحسبك هـــذه الشهادة من رجل قارب الستين ، وهو اليوم استاذ في جامعة (استراسبورغ) ، وكفى بذلك تعريفاً به ، فما يمكن ان يصل الى مقعد الاساتذة في جامعات فرنسا الا الجِلّةُ من العلماء .

اما هذا الحنين الكئيب ، الذي ضاق به صدره ، فقـــد كان تعبيراً صادقاً كل الصدق ، عن شدة تعلقه بالبلد وأعلامه ، وعن اثره العميق في نفسه ، على الرغم من طول العهد ، وتعاقب الأيام .

لو ان رُسُلَ العلم بين الأمم المختلفة الأعراق والأجنـــاس ، كانوا مثل (غوليه) لتقلّص ظل الخلاف في هذا العالم ، ان لم اقل : لما اختلف الناس في جميع اقطار الأرض .

العُطلَةُ الصَّيفِيَّة

نسخ وحفظ ودراسة

السباحة في الربوة والوادي وباب السريجة

واصطياف بالسهرات مع المقتبس وصندوق السمع

العطلة الصيفية ! وهل كان في ايامنا عطلة صيفية ؟ هل عرفناها ؟ هل استمتعنا بها كما يستمتع بها ابناء هذا الجيل ؟ انني أشك في ذلك ؟

اما انا — واعوذ بالله من قول انا — اما هذا العبد العاجز ، فانه يذكر عن العطلة الصيفية كل شيء ، الا انها كانت عطلة صيفية بالمعنى الصحيح . كنت آتي أهلي بجلائي في نهاية العام الدراسي ، فلا احاسب على التفوق ! ذلك لان الرسوب من شأن الحمير (كذا كان يقال لي) ، اما الانسان الآدمي ، الذي يقرأ ويكتب ويعقل ، فعليه ان يبحث عن التفوق. فاذا ما ألقيت بجلائي بين يدي أهلي، والخجل يملأ نفسي ، لاني لم اكن الاول في صفي ، وعرف الاهل انني ناجح من الدرجة الثانية او الثالثة (فما عرفت انني كنت الاول ابداً) ، اشاحوا بوجوههم عني ، واسمعوني قوارص الكلم ، وقالوا : كسلان ! نعم ، كسلان ! لاني لم اكن الاول ، وانما كنت الثاني او الثالث ! سبحان الله ! كيف يمكن ان يعود منطق ذلك الزمان الى هذه الايام .

وفي اليوم التالي مباشرة، من غير راحة او انتظار ، كانت دروس البيت تبدأ، وعلى مقياس واسع ، فهذه معلقة عمرو بن كلثوم ، في احدى السنين ، ينبغي ان احفظ منها في كل يوم عشرة ابيات على الاقل . واني لاذكر انني قضيت نصف النهار ، وانا

احاول ان افهم معنى قول زهير بن ابي سلمى : (أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ)
فلا أصل . ثم حفظتها كالببغاء ، حتى اذا كنت في الصف العاشر ، زهوت بحفظها ،
ثم فهمت معناها من شيخنا الجندي رحمه الله ! كان هذا في عطلة . وفي عطلة ثانية
كان لا بد من حفظ المقامات العشر . وفي عطلة ثالثة ، لم يكن بد من حفظ قصائد
لشوقي في طليعتها المروانية التي مجّد فيها دمشق والامويين . وفي رابعة كان عليّ ان
أحفظ قصائد لحافظ ، في طليعتها فتاة اليابان :

لا تلم كفي اذا السيف نبا   صح مني العزم والدهر أبى

والى جانب معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة زهير او المقامات او غيرها كانت لنا
ساعة في النحو ، نقرأ فيها كتاب (شذور الذهب) على عمي قاسم رحمه الله . لقد قرأت
هذا الكتاب في سن مبكرة ، واسلوبه معقّد لمن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره . اني
لا ازال اذكر ان اوله : الكلمة اسم وفعل وحرف . ويبدأ المؤلف بالحرف ، فلا يمهل
الطالب في تعريفه ، حتى يستشهد بقوله تعالى (ومنهم من يعبد الله على حرف) . ولقد
كنت اقرأ النص ، ويسمعه عمي قاسم واخي مُسَلَّم رحمهما الله . وانت تعلم ان الكتب
القديمة ليس فيها تنقيط ولا فواصل ، ولا اشارات ، كما في كتب هذا الزمان . وقد جاءت
العبارة على النحو التالي : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَى حَرْفٍ) ألآية . فبدا
لعمي ان يسألني : ما معنى ذلك ؟ فافتكرت ، ثم أجبت . كان جواباً مضحكاً ومغضباً
في آن معاً . قلت : ومن الناس من يعبد الله على حرف الآية ، اي على اطراف الآية ،
دون تعمق فيها . فضحك عمي غاضباً وعلّمني الاصطلاح المألوف ، الذي يفيد ان
كلمة (الآية) يراد منها : (تمم الآية ، او اكملها ، او كما جاء في الآية) ! كان هذا
غريباً عني كل الغرابة ، واؤكد انني لم افهمه كل الفهم ، الا بعد زمان ليس بالقصير .
فاذا ما انتهى درس النحو كان لا بد لنا من درس في الفقه مع الشيخ حامد التقي ، فقد
كان قريباً ، وكان بيته قريباً ، وما زال روحه حتى اليوم مني قريباً . كنت اضيق بدرس
الفقه ، ولكني صبرت على الدرس . ثم اذا انقضى درس الفقه ، كان لنا درس في
الحديث والتوحيد مع علامة الاسلام في هذا الزمان الشيخ محمد بهجة البيطار ننتقل فيه
الى داره بالميدان ، وكفى به اماماً ومرشداً .

وليت الأمر كان يقف عند هذا الحد . كان هنالك ما هو اخطر من ذلك . كانت
الكتب المدرسية في ايامنا مفقودة ، وما استعنا به من الكتب المصرية المطبوعة يومئذ لم



اعتاد مكتب عنبر ان يحتفل بخريجيه في كل عام ، فيقيم (سيراناً) شامياً في أحد البساتين القريبة . والصورة تمثل خريجي عام ١٩١٢ في بستان آل البكري بالقابون . ويلاحظ بينهم الاستاذ سعيد الغزي، وقد تولى رئاسة الوزارة اكثر من مرة ، والاستاذ وجيه الاسطواني وقد تولى رئاسة محكمة التمييز (النقض) ورئاسة المحكمة العليا .



صورة رائعة تجلى فيها تواضع الاساتذة في جلوسهم متربعين على الارض ، ووقوف طلابهم المتخرجين عام ١٩١٢ ، في بستان آل البكري بالقابون. والعربي الوحيد بين الاساتذة هو الشيخ محيي الدين الخاني (الرابع من الجالسين الى اليمين) ، وأما الباقون فهم من الترك . يلاحظ بين الطلاب : الاستاذ سعيد الغزي ، آخر الجالسين الى اليسار ، والزعيم الوطني فخري البارودي ، وهو الثاني ممن في الصف الاول (وكان ضيفاً) ، والاستاذ فائز الخوري ، رحمه الله ، وهو الرابع من الواقفين في الصف الثاني ويليه السيد نسيب البكري . وغيرهم .

يكن يغني عن المنهاج كاملاً . فلم يكن بد اذن من امر متعب ، كنا نعانيه سنة بعد سنة . ذلك ما كان يسمى في ايامنا (النوط) . ان هذا النوط هو مجموعة الدروس التي يتلقاها الطلاب كل سنة . وكنا نستبق الركض ، بعد النجاح مباشرة ، الى من سبقنا من رفاقنا لنستعير منهم هذا (النوط)، ولننسخه خلال العطلة الصيفية. وبدون هذا (النوط)، ليس هنـــاك دراسة ، وليس هناك نجاح . وما زلت اذكر ان هذا (النوط) كان ضخماً في سنة من السنين، وتباطأت في نسخه، فسهرت الليالي في بدء العام الدراسي ، واتممت نسخه على حساب صحتي . كانت دروس الكيمياء والفيزياء والتشريح والنبات وطبقات الارض (الجيولوجيا) خاصة مما نعتمد فيه على (النوط) . انه أمالٍ سبق ان دفعهـــا الأساتذة الى الطلاب فتناقلوها .

اما دروس الرياضيات ، فكنا نعتمد فيها على مـــا نكتب والاستاذ يلقي الدرس . كنا نسمي ما نكتب (نوطاً) ايضاً . ولم يكن ممكناً في هذه المادة الصعبة ان يتناقل الطلاب خلفاً عن سلف ما كتبوا. كذلك في التاريخ والجغرافيا والعربية وبقية الدروس.

على هذه الطريقة كنا نتعلم ، فلينظر ابناء هذا الجيل ماذا هُيِّىءَ لهم ، وماذا كان مهيئاً لنا، وماذا صنعنا، وماذا يصنعون، وليتقوا الله في آبائهم، وفي وطنهم، ولعلهم فاعلون.

ان الكتب المدرسية مبذولة في هذه الايام ، في كل المواد ، ولعلك ترى في المـــادة الواحدة اكثر من كتاب . ولا نطلب من ابنائنا الا ان يقرؤوا ويتعلموا ، فهل بلغوا الغاية التي يريدها منهم هذا الوطن ؟

اما النزهات (السيارين) ، فانها غالباً مع الاهل ، في الربوة ، او الوادي ، او صدر الباز ، او احد البساتين المجاورة في باب السريجة ، او الشاغور ، واذا ما اتفق ان سمح لنا بالخروج من البيت بعد العصر وحدنا، فلا بد ان نكون فيه مع الغروب على الأكثر ، فاذا ما وصلنا بين المغرب والعشاء كانت الطامة الكبرى، لأن الوقت قد ضاع ، ولأن السوء يحيق بمن تدركه الظلمة وهو خارج البيت ، ولأنـــه ليس من شأن الأولاد النجباء ان يتلهوا خارج البيت بما يسيء الى الاخلاق الكريمة .

ولعلك تسأل : واين ما يسميه الناس في هذه الأيام (الاصطياف) ؟ كان ذلك مجهولاً ، لا يعرفه احد . وانما كان في ايامنا طبقة من الموسرين ، اصحاب المزارع ، في الغوطة ، ولهم فيها دور ، او هكذا اصطلحوا على تسميتها ، فكانوا يذهبون في الصيف بالأهل اليها ، ويدعون الأقارب والأصدقاء لقضاء ايام فيها . وما زالت نفسي مليئـــة

بذكريات عبقة عنها . كان لنا قريب يملك مزرعة في (مسرابا)، بالقرب من (دوما). وكان لا بد لنا من ان ندعى في كل سنة ، ومن ان نقضي اياماً فيها . لم يكن في البيت الذي كنا نأوي اليه شيء من رائحة دمشق الا بابه ، اما داخله فقروي كامل : ارض دار فسيحة ، تلهبها الشمس منذ الشروق حتى الغروب ، وغرف مصطفة على جوانبها ، وليس في الدار من ماء الا ماء البئر ، منــه يأخذون لشرابهم وطعامهم وغسيلهم وقضاء جميع حاجاتهم . وعلى من احتاج الى الماء ان يذهب الى البئر لينضح منه حاجته بنفسه ، وكثيراً ما وقع عليه التزاحم . وقد ادت قلة الماء لانتشار الذباب ، وهجوم اسراب البعوض ، فكم عدنا من (الصيفية) ، وارجلنا قد التهبت من عقصها ، وتركت عقابيل كريهة . وكان الكبار يحارون في كيفية قضاء الوقت لاشتداد الحر ، فالرجــال يلعبون النرد او الشطرنج ، والنساء يلعبن (البرجيس) ، او ينهمكن في تهيئة الطعام ، وترتيب شؤون البيت . أما نحن الصغار فقد كانت لنا ألهيات نجد فيها غاية السعادة . هربت مرة ، لكثرة ما اصابني من الضيق ، الى البيدر ، وركبت لوح الدراس ، في القائظة ، فافتقدني اهلي ، ولمــا عدت أنبوني بشكل نغّص عليّ كل السرور . واغريت مرة الصديق الدكتور يحيى الحديدي ، وكان معنا في هذه الرحلة ، فصعدنا مئذنة الجامع ، وهي لا تعدو بضع درجات ، وأذّنا في غير الميقات . ولما عرف الأهل ذلك ، كادوا يحجرون علينا ، خوفاً علينا من السقوط ، وتأديباً لنا على اقامة الشعائر في غير اوانها . واذا مــا اراد الأهل ان يتفسحوا ، خرجوا في المساء ، ولا سيما في الليالي المقمرة يمشون في الحقول ، وربما حملوا طعام المساء الى قناة كانت تسمّى (الشرقية)، احتفرها اهل القرية ، وكانوا يستطيبون ماءها ، لانه ينبع من جوف الارض ، وليس كمياه الآبار . ولا تسل عن نومنا في تلك الايام ، كنا ننام تحت الكلة (الناموسية) ، وربما حشرنا كل اثنين او ثلاثة اشخاص ، فلا سبيل الى النوم خارجها ، خوفاً من اذى البعوض . وكان في القرية لحام واحد ، ولكنه لم يكن يذبح في كل يوم . اذكر انني دعيت ذات صباح ، وأعطيت صينية ، فحملتها وتبعت رب الدار ، ودخلنا دكان اللحام ، ويا لــه من دكان ! لقد قضيت نصف النهار ، من الصباح الى الظهيرة في هذا الدكان القروي الصغير ، بين اسراب الذباب والزلاقط[1] المهاجمة ، ورب الدار يأمر بالجرم والفرم ، والشرح والذبح ، حتى اذا انتهى حملت الصينية ، وعدنا الى البيت ، فوجدنا بائعاً متجولاً معــه بطيخ ، فاشترينا الحمل كله ، ونقلت ثلاثين بطيخة من خارج الدار الى داخلها !

---

١) وتُسمّى في العربية الدَّبْر ، واحدتها دبرة . والدبرة الدبور ، والزلقطة دبرة .

ويخيّل اليّ ، انني على الرغم من هذا كله ، كنت اشعر بالسعادة في هـذا الاصطياف ، كما كان كل الأهل سعداء ، اكثر مما اشعر به في هذه الايام ، في اعظم الفنادق واحلاها ! فقد كان في الدنيا خير ، وكنا ننعم بالحب الحقيقي العميق ، يغمر نفوسنا ، فيطغى على كل شيء فيها ، ولا يدع مجالاً لأي شيء غيره !

ونعود الى دمشق ، ونحن نتحدث عن هذه الايام الحلوة السعيدة في سهراتنا . هذه السهرات التي كان قوامها الاحاديث البريئة ، او المطالعة المفيدة ، او قراءة جريدة المقتبس . فلم يكن في ايامنا راديو ، ولا تلفزيون ، ولا شيء يشبه هذا . كان الشيء الوحيد الذي تزودت به بعض البيوت هو (صندوق السمع) ، او الحاكي ، كما سمّاه اللغويون ، او (الكراموفون) ، كما درج على الألسنة في آخر ايامه . وهذا الصندوق لم يكن الا في بيوت معدودة بمدينة دمشق . فاذا ما رغب الأهل سماعه ، اجمعوا امرهم ، وقرروا ، ولموا زمامهم ، ثم نفذوا ، وذهبوا يقضون السهرة لدى احـد الأقارب ليطربوا بسماع (صندوق السمع) . وربما رتبت لذلك السهرات ونظمت . اذكر انه كانت لنا قريبة خفيفة الظل ، لطيفة المعشر ، حلوة الحديث ، اخاذة المنطق ، حادة النكتة . كانت اذا جاءت لزيارتنا – (والزيارة لم تكن كزيارة هذه الايام ، دقائق معدودات ، وانما كان لا بد من نوم ليلة كاملة) – تحلقنا حولها لنستمتع بحلاوة احاديثها ، وجاذبية شخصيتها ، ولطائف نكاتها . طلبت اليّ مرة أن اضع لها اسطوانة لتسمعها ، فمددت يدي الى الأولى فسألتني عنها قبل وضعها ، فقلت : (البعد علمني السهر) لأم كلثوم ، قالت رحمها الله رحمة واسعة : (لأ تقبرني ! حط لنا : شرّف حبيب القلب) . ولا تسل ليلتئذ عن الضحك المكبوت بين الحضور . كان حديثها احلى من كل موسيقى ، وما زالت انغامه ترن في آذاني احلى من أية سمفونية سمعتها واسمعها !

هذه هي العطلة الصيفية ايام مكتب عنبر ! لا رحلات ولا فتوة ، ولا نواد رياضية ، ولا راديو ، ولا تلفزيون ، ولا حلقات رقص للتشاتشاشا ، او التويست ، او الماديسون ، او غير ذلك مما تعلق به ابناء هذا الزمان . ومع ذلك فأنا سعيد بطفولتي وفتوتي ، احسّ بدفئها حتى اليوم ، كلما ذكرتها ، وترتسم امامي صور عديدة من مفاتنها وبهجاتها التي لا تنقضي . لا بل اني أؤكد انني اشعر اليوم بسعادتها اضعاف اضعاف ما يشعر به فتيان هذا الزمان .

ليت العطلة الصيفية لأيام مكتب عنبر تعود ، وليتني احظى منها ولو بعود !

التّاريخ السّياسيّ

١ - جمعية النهضة العربية وأثرها

كيف مثلت رواية طارق بن زياد في الصوفانية ؟

لم يبدأ التاريخ القومي لمكتب عنبر مع الاحتلال الفرنسي ، وانما كانت الحوادث التي وقعت بعد الاحتلال ، امتداداً لروح قومي ، غرست جذوره ، وقـامت سوقه ، واخضوضرت اوراقه ، واينعت ثماره، قبل هذا التاريخ . فقد وقعت فيه قبل هذا التاريخ وبعده حوادث هامة ، تدل على مبلغ اسهامه في الحركات القومية الكبرى . ويغلب على ظني ان هذا المكتب كان مركزاً هاماً من مراكز القومية العربية منذ اليوم الذي انشئ فيه ، ولذلك اسباب واضحة : فالغالبية الساحقة من الطلاب كانت عربـاً اقحاحاً ، واقليتهم من الترك،وبعض المواد التي تدرس فيه كانت تدعو طبيعتها نفسها لاثارة الروح القومي ، كالتاريخ الاسلامي ، ولا سيما تاريخ الأمويين والعباسيين ، واللغة العربية . أضف الى ذلك ان بعض الأساتذة الأتراك انفسهم ، وان كان قلة نادرة ، كان مسلماً حقاً ، كثير التقديس للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ولقومه العرب .

ومنذ مطلع القرن العشرين ، بدأت الحركات القومية الخفية في هذه البقعة من بلاد العرب . كان اولها وابرزها جمعية النهضة العربية التي ألفت أولاً في القسطنطينية وانتقلت الى دمشق عام ١٩٠٦ م – ١٣٢٤ هـ. وكان محب الدين الخطيب اول رئيس لها ، وصلاح الدين القاسمي اول امين عام . وكان من ابرز اعضائها : محمد واحمد ومحمود كرد علي ، وعثمان وجميل واديب مردم ، ولطفي الحفار ، وجمال القوتلي ، وعارف الشهابي ، وفائز الشهابي ، وجمال الحفار ، وزكي الخطيب ، ورضا مردم ، وحكمة المرادي ، وعبد الفتاح الجندي ، ومحمد الحفـار ، وصبحي المليحي ، وكمال الحلباوي ، ونجيب الشهابي ، وصلاح الدين العظم ، وسامي العظم ، ورشدي الحكيم وغيرهم . رحم الله من انتقل منهم الى الدار الآخرة ، ومدّ في عمر من بقي منهم .

وكانت اغراض الجمعية واضحة في اسمها (النهضة العربية) ، وكان اعضاؤها جميعاً من الدماشقة الأصلاء الذين كان لهم ابناء واقرباء في المكتب، كما توثقت عرى صلاتهم مع اسر الطلاب ، ويكفي ان تلقي نظرة على هذه الأسماء ، لتعلم مبلغ مكانتها في دمشق ، فكان طبيعياً ان تنتقل اهداف الجمعية الى الطلاب عن طريقها وعن طريق الأسر ، وان يسري الروح القومي بين افراد الفئة المثقفة الواعية . ويوم استؤنفت الحياة الدستورية عام ١٩٠٨ اخذ مكتب عنبر ينفض عنه غبار التركية والطورانية ، ليظهر بمظهر العربي الرائع الأصيل . تبدى ذلك في مظاهر متعددة ، لست اعرف الا القليل منها، من افواه الناس في هذه الأيام، لأنني لم اكن ولدت يومئذ . وكم اتمنى ان يسجلها الذين عاشوها وعرفوا تفاصيلها ووقائعها بأشخاصها وازمنتها وامكنتها.عرفت مثلاً ان مكتب عنبر قد ألّف فرقة تمثيلية قدمت رواية (طارق بن زياد) في الصوفانية . وما زالت صورة الاجتماع الشمسية موجودة لدى الصديق العالم الدكتور صبحي ابو غنيمة . كان هذا في عام ١٩٠٨ او بعدها بقليل . كان مجرد التفكير في ذلك الزمان بتمثيل رواية عربية ، يقوم بادوارها طلاب مكتب عنبر ، شيئاً عظيماً يوجه النظر ، ويدعو الى كثير من الاعجاب ، ذلك لأن سياسة الترك على مختلف نزعاتهم وميولهم ، كانت ترمي الى تتريك جميع العناصر غير التركية . ويقيني انهم لم يسمحوا بتمثيل هذه الرواية الا لأن التيار العربي الذي انبجس نوره الوهاج كان اقوى من السياسة التركية . قيل ان استاذنا سامي الميداني مثل يومئذ دور ملك الاسبان ، وان استاذنا الدكتور يحيى الشمّاع مثّل دور الترجمان بين الملك وبين طارق، وما ادري من الذي مثّل دور طارق، ولكن المعاصرين يعرفون هذه التفاصيل كلها .

انني لا أمر بهذا الحادث العظيم من غير ان أبحث عن عوامله العقلية وعن بواعثه النفسية، ودون ان احاول تلمّس الآثار والنتائج العميقة التي تركها في ذلك الزمان . ولعلي ارى في العوامل العقلية جهداً كبيراً بذله المفكرون ، في ذلك العصر ، ارادوا من ورائه ان ينبهوا الناس الى تاريخهم ، ولا سيما طلاب مكتب عنبر ، وان يعوّدوا هؤلاء الطلاب الخطابة بالفصحى ، وان يشيدوا بمزايا هذا التاريخ العظيم . ولعلي ارى في بواعثه النفسية تعبيراً عن هذا الكبت الطويل الذي أورث الألم العميق ، في نفوس العرب الذين حكمهم الترك قروناً طويلة ، كما ارى ارضاءً للكبرياء القومية التي لم ينقطع تيارها ، بفضل المصلحين المتعاقبين ، الذين لم يخل منهم جيل ، وكان الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله بطل هذه الكبرياء في ذلك العصر ، بما نشر من مبادئ الحرية ، وبما ارشد الى طرق

الاصلاح ، وبما اشار الى وسائل الثورة على الظلم ، على طريقته التي عرفها معاصروه ، ودونها مؤرخوه . ولعلي ألمس آثاراً باهرة ، ونتائج ناطقة لتمثيل رواية (طارق بن زياد) ، في هذه الأحاديث الطويلة ، التي استمرت اشهراً ، بين الناس ، وهم يروون ما رأوا ، ويتهللون لهذه المشاهد المثيرة ، ويقضون السهرات في التعليق على المناظر ، وفي ترديد الحوار ، ومواقف البطولة ، ولعلهم تحدثوا بذلك ايضاً في المساجد وفي المقاهي . فاذا ما عدت بذاكراتك الى تلك الأيام ، ونشرت امامك صورتها ، واحطت بجميع الوانها ، عرفت مبلغ ما كان لتمثيل رواية موضوعها الفتح العربي في الأندلس من اثر عميق في مجتمع عربي ، يحكمه الترك . اما كيف هيّئت الرواية ، وكيف اعد مسرحها ، ومن اختار موضوعها ، وكيف انتقي مكانها ، ومن نظم مراحلها ، ومن كان مدبر شؤونها ، ومن هو الذي اشرف على حوارها ، وحفّظ الممثلين ادوارهم ، وغير ذلك ، فلم أهتد الى معرفته ، ولكني أتخيل اليوم ، طائفة من الناس ، كان اخراج رواية طارق بن زياد شغلهم الشاغل ، بروح يكاد يدفعهم الى يوم فتح الأندلس ، ان لم أقل ان الشعور كان يدغدغ أحلامهم في استردادها[1] .

---

١) حدّثني الصديق العالم الدكتور صبحي أبو غنيمة بعد ان اطلع على هذا الفصل ، قال: كان من اثر اقامة الحفلة التمثيلية لرواية طارق بن زياد في حديقة الصوفانية ان وقع اول اضراب لطلاب مكتب عنبر ، ولم يكن تاريخه قبل ذلك، قد عرف شيئاً اسمه : الاضراب . اما سببه فقد اشيع ، بعد اسبوع من الاحتفال ، ان احد الاساتذة الأتراك ، واسمه (مصطفى ثابت) ، وكان استاذاً للرياضيات والفيزياء ، قد شتم العرب . فاهتاج الطلاب ، وكان على رأسهم: محمد المحيسن (من الاردن) ، واحسان الشريف ، وعبد الغني القادري ، ويحيى الشمّاع ، وسامي الميداني ، وراوي الحديث صبحي ابو غنيمة ، واجمعوا أمرهم على الامتناع عن الدخول الى قاعات الدرس ، لأنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد نوعاً آخر من الاضراب ، واغلقوا باب المدرسة ، وتولى حراسته ذكي الرجولة ، فأشهر مسدسه ، ووقف في الفناء الداخلي ، ليمنع اي طالب من الخروج ، او اي قادم من الدخول . وقد حضر على الأثر مدير المعارف ، ومدير الشرطة ، فلم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً . فلما تفاقم الأمر حضر والي الشام عارف المارديني رحمه الله ، وكان عربياً يتقن العربية ، ويجيد الخطابة بها ، على قدر ما كانت اجادة الخطابة معروفة في عام ١٩٠٨ . وقد ائتمر الطلاب فيما بينهم ، وقرروا ان يفتحوا له الباب ، فدخل ، وما كاد يتوسط حلقة المضربين حتى وقف بينهم خطيباً وقال :

وتنقضي السنوات بين ١٩٠٨–١٩١٤ ، فلا اكاد اعثر على حادث آخر ، وان كان يقيني ان هنالك ما ينبغي التوقف عنده ، حتى اذا اعلنت الحرب العالمية الأولى ، كان من شأن الناس جميعاً ، بما في ذلك مكتب عنبر ، ان يوقفوا كل نشاط ، مترقبين تطور الحرب ونتائجها . كذلك لست أدري ماذا كان في مكتب عنبر بعد اعدام شهداء ٦ ايار .

فاذا ما جلا الترك في اعقاب الحرب العالمية الأولى ، ونعمت البلاد بالاستقلال ، كان مكتب عنبر اول مؤسسة تعربت بشكل كامل ، وفي مثل لمح البصر ، وزال منها كل اثر للتركية ، بفضل الأئمة والأساتذة الذين حشدوا فيه ، وقام اساتذته وطلابه ومراقبوه وحتى خدمه بواجبهم في تدعيم اركان الدولة الفتية . ولم يفت هذا المكتب ما كان مقرراً من انتداب فرنسا على البلاد ، لا سيما وانها قد نزلت بخيلها ورجلها في لبنان منذ اليوم الأول لانتهاء الحرب ، فكان المكتب يغلي كالمرجل ، وهو يتوقع احتلال البلاد ، يتحدث في ذلك الأساتذة فيما بينهم ، ويحدثون بذلك طلابهم ، ويحدث الطلاب بعضهم بعضاً فيما ينبغي ان يفعلوا . فلما ظهرت بوادر يوم ميسلون ، انقلب مكتب عنبر بين عشية وضحاها الى ثكنة عسكرية . وأرجو ان لا تفهم من هذا التعبير (ثكنة عسكرية) انني اعني ما ترى في هذه الايام من الثكنات ، لأنني أعني الروح الذي سيطر على المكتب في تلك الفترة ، وهو اكثر من كاف لصدق الوصف . لقد جيء بالسلاح الى المكتب ، ووزع على الطلاب ، واخذوا في التدريب عليه . حدثني استاذي الدكتور جميل صليبا قال : كنت طالباً داخلياً في تلك الفترة ، وكنا ننام وبندقيتنا الى جانب سريرنا . (وكم

يا ابنائي !

انني عربي بدوي ، وأحب الشهامة ...

وما ان سمع الطلاب براعة الاستهلال هذه ، حتى اهتاجوا ، وحيوا الوالي ، وصفقوا له طويلاً ، ثم امر باخراج الاستاذ مصطفى ثابت . وقد خرج بين صفين من الطلاب ، وسط مظاهرة السخط . وكان ذلك ما ابتغاه الطلاب من اضرابهم ، فلم تحتج عودتهم الى قاعات الدرس ، الى أكثر من اشارة لطيفة من الوالي .

قال ابو غنيمة : لولا ان تمثيلية طارق بن زياد قد اقيمت قبل اسبوع ، لما كان ممكناً ان تتحرك النفوس ، وان يستجيب الطلاب الى الاضراب ، وان يفصل الأستاذ الذي اشيع عنه انه أساء الى العرب .

أتمنى ان يكتب صليبا نفسه عن هذه الفترة التي عاشها). انني لم اعرف اكثر من هذا، ولكني اشعر ان هذا الذي عرفته شيء عظيم ، يهز النفوس هزاً عنيفـــاً . كان الطلاب جميعاً فتياناً في مقتبل العمر ، حفزهم الى حمل السلاح والتدرب عليه ، روح فاض بالغيرة على حرية البلد واستقلاله ، وشعور طاغ بوجوب قتال المغيرين على الديار . ألا ترى أن نوم الطلاب الداخليين وسلاحهم في مهاجعهم معهم في ذلك الزمان ، يكفي لأن ترى في مكتب عنبر صورة (الثكنة العسكرية) ؟

لست ادري ماذا كان نصيب عنبر في يوم ميسلون ، ولكني أدري ان فريقـــاً من ابنائه قد حمل السلاح فعلاً وذهب الى ساحة القتال. ولست اشك في انهم قاتلوا على قدر ما اوتوا من العزيمة والحماسة والوطنية . ان تفصيل ذلك يعرفه الذين حضروا المعركة ، ولم اكن واحداً منهم لصغر سني ، وقد حاولت ان احقق في هذا الموضوع ، فلم احصل على اكثر مما ذكرت . كذلك سألت عمّن استشهد او جرح منهم في ذلك اليوم ، فلم أظفر بطائل . فهلا اكمل هذا النقص من عنده شيء من العلم ؟

وانتهت مأساة ميسلون ، وتم الاحتلال ، فماذا كان موقف مكتب عنبر ؟ ذلك ما سأحدّثك به في الفصول المقبلة : رشيد بقدونس أول من جاهر بتعليم الوطنية للطلاب في قاعات الدرس ، الذكرى الأولى للثامن من آذار ، مظاهرات كراين ، زيارة بلفور لدمشق ، زيارة دوجوفنيل لمكتب عنبر ، وغير ذلك مما يمكن ان يرد على الخاطر .

رشيد بقدونس

أول من جاهر بتعليم الوطنية للطلاب في قاعات التدريس

كان بطلاً من أبطال الثورة الفكرية

لم يكن في مكتب عنبر عقب الاحتلال الفرنسي احزاب ، ولم يكن الطلاب فرقاً وشيعاً متنابذين ، كذلك لم يكن رجال السياسة انانيين ولا مستغلين ، ولذلك لم يحاولوا التدخل في صفوف الطلاب لحلب نفوسهم بمبادئ براقة ، او بعناوين جذابة ، ليكسبوا من شبابهم تأييداً لهم في الشوارع .وكذلك لم يكن في مكتب عنبر اساتذة مختلفو المذاهب والآراء ، يعملون على تلقينها للطلاب . وانما كان في مكتب عنبر روح قومي طغى على كل شيء ، هو محاربة الانتداب ، والسعي للاستقلال . حول هـذا الهدف الأسمى اجتمعت كل القلوب ، وتوحدت كل الصفوف . ومن الانصاف ان اقول ان الأمر كان كذلك خارج مكتب عنبر ، فلم يكن في البلاد كلها ، بطولها وعرضها ، اي مطلب غير مطلب الحرية والجلاء .

هؤلاء الطلاب الذين حملوا السلاح وتدربوا عليه ، ونام معهم في مهاجعهم ، رأوا انهم قد جردوا منه ، وانهم اضحوا لا يملكون الا قلوباً ملأتها الحسرة ، ونفوساً مزقتها اللوعة ، وصدوراً اثقلتها الزفرة . كانوا يمشون في الشوارع وهم يهتفون للحرية والسيادة ، فاضحوا لا يستطيعون ان يلفظوا هاتين الكلمتين . كانوا لا يرون على المؤسسات الرسمية الا العلم العربي ، واذا بهم يرون العلم الفرنسي . كانوا لا يرون الا ضباط الجيش العربي وجنوده ، فاذا بالجيش العربي يختفي ، ولا يرون في الشوارع الا ضباط الجيش الفرنسي ، الذي كانوا يحاربونه بالأمس في ميسلون . ولست أحصي ولكني امثل . لقد اثقلت كواهلهم هذه المناظر المؤذية ، وهم لا يستطيعون لها دفعاً ولا تغييراً .

وقع الاحتلال في الخامس والعشرين من تموز ١٩٢٠ ، وكان الطلاب في ابان العطلة الصيفية . واستؤنفت الدراسة كالمعتاد في اوائل ايلول . لم يكن من حديث بين الطلاب الا الفاجعة وآثارها ، وسبيل الخلاص منها . لم يبدأ ذلك همساً ، كما كان متوقعاً ، وانما بدأ بأصوات مجاجلة عالية ، بين الطلاب انفسهم ، وبين الطلاب وبعض اساتذتهم . لا بل دفعت الحماسة بعض الاساتذة الى اكثر من الحديث ، دفعتـــه الى تعليم الثورة والعصيان . روي لي ان المرحوم رشيد بقدونس. وكان استاذاً للتاريخ ، ندد بالاحتلال. وبهذا الانتداب الذي فرض فرضاً . وكان في الصف طالب أراد ان يتخابث ، فقال للأستاذ : دعنا من هذا الحديث ، وهو يتظاهر بالخوف عـــلى الاستاذ من ان يصيبه أذى . واذا بصوت رشيد بقدونس يعلو حتى يكاد يسمعه كل من في مكتب عنبر ، وينهض من مقعده ويصيح في وجه الطالب المتخابث : اذهب الى (غورو) Gouraud وقل له : إن رشيد بقدونس يعلّم الطلاب الوطنية !

أنا لا استطيع ان امر بهذا الحادث العظيم من غير ان اقف عنده. اقف عنده لأرسل تحية حارة فيها كثير من الخشوع والتقديس ، الى روح هذا البطل القومي ، الذي ألقى اول درس علني في محاربة الانتداب في مكتب عنبر . وأقف عنده لأستمطر شآبيب الرحمة على جدث هذا الاستاذ العظيم الذي لم يتهيب جيش فرنسا ، ولا جواسيسها ، ولا اذاها ، فصاح في مكتب عنبر صيحة الحق والوطنية . وستشهد له جدران هذا المكتب يوم القيامة على هذه الحسنة الكبرى التي فتح فيها الباب امام الناس ، فقوّى ضعيف العزيمة ، ونشّطَ خامل الارادة ، واحيى مـــا كاد يموت من الآمال . واقف عند هذا الحادث العظيم لأتصور آثاره العميقة داخل المكتب وخارجه. لست اشك في ان الألسنة قد تناقلت ما جرى في الصف ، وما قال الطالب ، وما اجاب الأستـــاذ . ويقيني ان الأستاذ قد خرج من قاعة الدرس ليحدّث زملاءه خلال الفرصة بما جرى ، وهو هائج مائج ، وان طلاب الصف قد حدثوا رفاقهم من الصفوف الاخرى، خلال الفرصة الأولى ايضاً بما جرى بين الطالب والأستاذ . واني لأرى اليوم ، وقد مر عـــلى الحادث اثنتان واربعون سنة ، كيف تحلق الطلاب حلقات. وهم يستوضحون، ويستمعون، ومن كان منهم يلعب كف عن لعبه، ومن كان منهم يقرأ انقطع عن قراءته، واخذوا اولاً في لوم الطالب الذي اختفى ، ثم في تمجيد الاستاذ الذي ندد ثم صاح صيحة الحق. وهزم الباطل ، ثم كيف انقلب السماع والحديث والتعليق الى حماسة متأججة. غلت معها النفوس ، واضطرمت الجوانح . اني لأشهد اليوم بعد اثنتين واربعين سنة هذا المشهد الرائع ، في

باحة مكتب عنبر ، وقد اظلت الطلاب شجرتان كبيرتان من شجر (الميس) ، وانتظمت على جوانبه اروقة سقفها من القصدير ، اقيم على اعمدة من الحديد، اني لأشهد الطلاب يتظللون بالشجرتين الكبيرتين ، وبهذه الأروقة البدائية ، وهم يتأججون حماسة واندفاعاً ، ولا يملكون الا السخط على الطغاة ، وهم يتمنون السحق للعتاة .

قد يرى بعض ابنائنا الذين ولدوا في احضان الاستقلال ، وفي نعيم الحرية والسيادة ، ان الحادث صغير ، لا يستحق هذا التمجيد . فاليهم اوجه كلامي ، وادعوهم لان يدرسوا حقيقة الجو الذي عاشت فيه البلاد بعد الاحتلال ، واذا كانوا عاجزين عن الدراسة ، او متكاسلين عنها ، فليسألوا رجلاً مثلي شهد الاحداث ، ونشأ في جوها ، ورأى ما فيها من ظلم وظلام. كنت في تلك الفترة طفلاً ، ولكني كنت واعياً . خرجت غداة الاحتلال في الصباح الباكر لأتدارك الخبز لأهلي ، واذا بي ارى جنود السنغال قد وقفوا امام بعض البيوت . لقد زرعتهم فرنسا ، حتى في الأحياء القديمة الفقيرة ، كحيّنا الذي كنا نقيم فيه ، لجباية الغرامة الحربية التي فرضتها على البلد . كان منظر هؤلاء الجنود وحـــده ، رهيباً ، موحشاً ، لا لأنهم سود البشرة فحسب ، بل لأنهم كانوا اسوأ رمز للانتداب . لقد تعمدت فرنسا ادخال الوحشة عـــلى قلوب الناس بمنظرهم . وما كنا ندري في تلك الأيام انهم مسلمون مثلنا ، وانهم سيقوا الى هذا الجحيم رغم انوفهم ، وانهم مساكين ليس لهم من الأمر شيء.ولكنا كنا ندري انهم ابشع عنوان على الاحتلال البغيض.ولم تكتف فرنسا بهذا ، بل عمدت الى نفي زعماء البلاد الى جزيرة ارواد ، وبينهم هاشم الاتاسي وفارس الخوري وعبد الرحمن الشهبندر وغيرهم ، هذا فضلاً عن الأذى الذي كاد ينال الكبير والصغير ، وفضلاً عن اقتحام الجنرال (غوابـــه) Guoibet دمشق الأمويين ، ممتطياً جواده ، ومشهراً سيفه !

في مثل هذه الظروف التي عرفناها ، والتي ما زال الذين عرفوها احياء يرزقون ، وقف رشيد بقدونس في الصف ليتحدى (غورو) وجيشه واحتلاله وسنغاله والغرامة الحربية ، ولست مبالغاً اذا قلت : وقف ليتحدى الدنيا ، ويصيح في وجـــه الطالب المتخابث : اذهب الى غورو وقل له ان رشيد بقدونس يعلّم الطلاب الوطنية .

ان فريقاً من ابنائنا ولد على الحرير ، وما زال يتقلب عليه حتى اليوم ، وقد لمست في كثير من المواطن ، حتى من بعض الذين كتب لهم ان يحكموا هذا البلد ردحـــاً من الزمن ، انهم يجهلون هذا التاريخ القريب ، ولا يعرفون شيئاً عنه . ولو ألقيت اليّ امور

التعليم ، لخصّصت ساعات عديدة في منهاج الدراسة الابتدائية والثانوية والعالية ، لتاريخ هذا البلد ، منذ ايام فيصل الأول ، نضر الله عظامه ، حتى الجلاء ، ولأفضت في تعليم هذا التاريخ بمختلف الوسائل . لحا الله قوماً ارادوا ان يطووه ، ولو كتب لهم الاستمرار لما نجحوا في اطفائه ، مثلهم في ذلك مثل الذين (يريدن ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرين) . لقيت فريقاً من هذه الفئة التي حكمت هذا البلد ردحاً من الزمن ، والتي قدمها الاتفاق ، واخرّها الاستحقاق ، فنبهته الى جهله الفاضح بتاريخ البلد الذي انبته ، واقلته غبراؤه ، واظلته سماؤه ، ورواه ماؤه ، ودعوته الى دراسته ان استطاع ، او الى سماعه من الاحياء ان عجز .

ان صيحة صاحها رشيد بقدونس في ذلك الزمان ، تعادل في نظر المنصف مدافع تصوّب الى معاقل المحتلين . ولا ابالغ اذا قلت ان هذه الصيحة الأولى هي التي هيّأت ليوم الجلاء ، ذلك لأن الثورات السياسية او العسكرية الحقيقية في الدنيـــا ، هي التي تسبقها الثورات الفكرية ، ويعتقد في صوابها الجمهور .

رحم الله رشيد بقدونس الرائد الأول للوطنية في مكتب عنبر ، كان بطلاً من ابطال الثورة الفكرية ، وسيبقى اسمه في سجل الخالدين .

٣ - إحياء الذكرى الأولى للثامن من آذار ١٩٢١

الثامن من آذار ١٩٢٠ .

انه يوم من اعظم ايام تاريخ سورية الحديث. وقد لا يعدله في نظر بعض المؤرخين الا يوم الجلاء – ١٧ نيسان ١٩٤٦ – . اولهما ثبّت جـلاء الترك ، وتحرر البلاد من استعمار ناءت بوقره قروناً عديدة ، واعلن الدولة العربية السورية الحديثة ، بحدودها الطبيعية ، كما افصح فيه قرار المؤتمر السوري عن الاتحاد مع العراق، وشعرت فيه البلاد بجو كامل من الحرية والسيادة ، واخذت طريقها بـين الدول المستقلة بأجلى المعاني وأكملها . وثانيهما (١٧ نيسان ١٩٤٦) طرحت فيه البلاد انتداباً استمر خمسة وعشرين عاماً ، فرضته عليها القوة ، تحت شعار المدنية، ودعوى الأخذ بيد الأمم المتخلفة، فكان عيداً حقيقياً، لم تفرح البلاد بمثله ابداً، ولم أرَ عيوناً فاضت بدموع القلب، لا بدموع الأجفان ، كما رأيت في هذا اليوم العظيم .

كانت معركة ميسلون في الرابـع والعشرين من تموز ١٩٢٠ ، وانتهت – كما هو معروف – بدوس جميع المبادئ التي قامت عليها الحرب الأولى ، والتي ملأ الحلفاء الدنيا ضجيجاً بها . ارادت فرنسا ، التي كانت تملك اكبر جيش بري في الدنيا ، مزوّد في ذلك العصر ، بأحدث الآلات والادوات ، ان تحارب أمة ليس بين يديها الا بقايا تافهة من مخلفات الجيش التركي ! ومع هذا ، فقد ظهرت بطولات عزت على الشبيه والنظير ، في مختلف اقطار الدنيا ، وفي مختلف مراحل التاريخ . واستقر الأمر للقوة، واخذ الناس يتلهفون على مجد ذاهب، وينظرون الى ذل مقيم . كان عنوان المجد الذاهب، هو الثامن من آذار . وكان طلاب مكتب عنبر من اكثر الناس شعوراً بالمجد الذاهب ، ومن اعمق

الناس حزناً عليه، لأن مكتبهم كان ايام المحنة ثكنة، ولأنهم كانوا اوعى طبقة في الامة. فلما استؤنفت الدراسة في مطلع العام الدراسي ١٩٢٠ ، بقيت الألسنة تلهج بالمحنة التي ابتليت بها البلاد ، وظلت القلوب تعصر آلامها ، وتطويها عليهـــا ، في كل يوم ، كانت حلقات الطلاب تدوي في الفرص كدوي النحل ، في هذا البلاء النازل . فماذا يملكون ؟

كانت ذكرى الثامن من آذار قد طويت عملياً من سجلات الدولة ، فلم يعد لها من اثر ، واضحت في حكم الخبر ، يتحدث الناس عنه ، وفي القلب جرح ، وفي النفس حسرة ، وفي العين عبرة . ولكن الأيام والأسابيع والشهور تنقضي ، فلا تزيد النار الا ضراماً في النفوس . حتى اذا كان اوائل آذار ١٩٢١ ، قفزت الى اذهان الطلاب ذكرى الثامن منه ، واخذوا يتذاكرون في اعداد الأهبة له ، وكيف يمكن أن يتلقوه ؟

لم اكن يومئذ من عـــداد طلاب المكتب ، ولكنني حققت وسألت ، فعلمت ان المكتب اضرب في ذلك اليوم ، وكان هذا اول اضراب يقع بعد الاحتلال الفرنسي . وقفت فئة من الطلاب خارجه، بالقرب من الفرن في الناحية الشمالية، ووقفت فئة اخرى منهم في الناحية الجنوبية ، وافهموا القادمين ان الاضراب لون من الوان الاحتجاج على الانتداب، وان التجمع يقع في المرج الاخضر (وكان يُسمّى مرجة الحشيش) ، فعلى الطلاب الانطلاق اليه . وقد تم ذلك بالفعل، فلم يدخل المكتب احد، ولم تلق الدروس كالمعتاد . اما التجمع فلم استطع ان اعثر على تفاصيله وما تم فيه . هذه هي روايـــة الصديق الأخ الأستاذ ماجد الغزي ، انقلها كما سمعتها منه ، واضاف اليها : ان الذي ابلغه الاضراب ، هو السيد نصوح دياب ، مع رفاق آخرين لا يذكرهم ، وان مدير الشرطة حضر في اليوم للتالي الى المكتب ، واستدعاه الى غرفة المدير ، وكان الحاحـــه منصباً على معرفة الذين حرّضوا على الاضراب ، ولكنه لم يظفر بطائل .

اما الداخليون (وكنا نسمّيهم الايليين)، فلم يبرحوا المكتب، وبقوا فيه حتى المساء. كانت مذاكراتهم في النهار عمّا ينبغي ان يفعلوا . وكان زعيمهم وقائدهم الصديق العالم الدكتور صبحي ابو غنيمة . ولم تطل المذاكرات والمباحثات ، فقد اتفقوا عـــلى احياء الذكرى العظيمة في مطعم المدرسة وقت العشاء ، وهو وقت تجمع طبيعي . وقد اختاروا هذا الوقت ، ليستطيع الخطباء تهيئة كلماتهم ، وليتمرن المنشدون على الأناشيد الوطنية .

كان اول من حدّثني عن هـــذا الموضوع الخطير الصديق الأخ الأستاذ نصّوح الأيوبي . كان يومئذ طالباً داخلياً في المكتب ، ولكنه كان صغير السن ، فلم يعد يذكر

عنه اكثر من صور غامضة. واحالني على زعيم الاحتفال الدكتور صبحي ابو غنيمة. الا أنَّ بعد العهد، وتعاقب الأحداث ، والمشاغل المتعددة والمتنوعة ، قد انست الصديق ابو غنيمة تفاصيل هذا الحادث الخطير ، فهو لا يذكر عنه اكثر من انه كان احد خطبائه ، وكان في الواقع خطيبه الأول ، فليت الذين يذكرون من المعاصرين شيئاً عن التفصيل يتفضلون بنشره ، فمن المفيد مثلاً ان نعرف صاحب الفكرة ، ولولبها ، وكيف تلقاها الطلاب ، وهل اتصلوا بأساتذتهم من اجلها ، وكيف كان رد الفعل ، وما هو موقف الخدم في المكتب، الى غير ذلك من التفاصيل المفيدة . اما الأخ الايوبي فيروي ان الطلاب اجتمعوا في المطعم ، ولم يأووا الى مقاعدهم ، وانما وقفوا صفين ، ووقف بينهما ستة من الطلاب اختارهم الدكتور ابو غنيمة ، وكان من بينهم المرحوم رشيد الملوحي ، طيّب الله ثراه ، وملأ بالأرج ذكراه ، ولم تفت النكتة نصوح الايوبي ، في سنه المبكرة ، فاقترب من ابو غنيمة وسأله : هل صوت الملوحي جميل حتى اخترته مع المنشدين ؟ فاجاب ضاحكاً : كلا ، ولكنه حافظ . يريد انه حافظ للأناشيد . ويقيني ان روح اخي رشيد رحمه الله تضحك في عليائها بجنان الخلد ، لاعادة هذه (النكتة الأيوبية) في هذا اليوم .

اما الخطب ، فكانت نارية ملتهبة ، تشيد بالحرية والاستقلال ، وتنكر وتستنكر الانتداب ، لقد ضاعت نصوص هذه الخطب، ولم يكن ممكناً ان اعثر منها على شيء ، ولو وجدت لكانت من الوثائق الهامة في تاريخ النهضة السياسية في هذه البلاد . ويقيني ان في اسلوب هذه الخطب طرافة ، وفي بعض ألفاظها جدة ، فلم تكن الخطب السياسية مألوفة ، ولا معروفة ، ولا سيما بين الطلاب ، كذلك فان كثيراً من الالفاظ كان مجهولاً ، لقلة استعماله ، او لم تألفه الألسنة والآذان .

ومهما يكن من شيء ، فان مكتب عنبر هو اول من نبّه اذهان الناس الى يوم الثامن من آذار ، وهو اول من احتفل بذكراه . ويقيني ان عمله هذا هو الذي حفز الحكومات المحلية (كما كنا نسمّيها يومئذ) الى اعتباره عيداً رسمياً . ولست ادري على التحقيق اول من اعتبره عيداً رسمياً من هذه الحكومات . ولكن الذي ادريه انه كان في السنة الاولى بعد الاحتلال ، تحدياً صارخاً للانتداب وجيشه ، ولجمعية الامم ، ولشجب القوة واستخدامها ، ولتأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحرصها على حريتها وسيادتها ، وغير ذلك من المفاهيم التي انتشرت فيما بعد ، واضحت دستور هذه الأمة في نضالها السياسي والثوري ضد الاحتلال .

ان هذه الحلقة من جهاد الامة ، ممثلاً في مكتب عنبر ، تعتبر الانطلاقة الأولى التي عبّرت فيها عن امانيها بالحياة الحرة الكريمة ، وليس من الانصاف ان يمر مؤرخ الحياة السياسية في البلاد بهذا الحادث، من غير ان يعطيه ما يستحق من التقدير والثناء. ومن المؤكد ان الأطفال الذين احيوا الذكرى الأولى للثامن من آذار ، هم الذين اضحوا فيما بعد شباباً اعتمدت على سواعدهم وعقولهم وقلوبهم الحركة الوطنية في مختلف مراحلها، وهم الذين اضحوا فيما بعد رجالاً تحملوا مسؤوليات التوجيه حينـــاً ، والحكم حيناً. فلهم شكر هذه الأمة على ما بذروا من بذور طيبة صالحة ، استوت على سوقها ، وآتت أكلها في يوم الجلاء العظيم .

دارُ المعلّماتِ أقامَتْ أوّلَ مُظاهرةٍ سياسيّةٍ
طلّابُ المكتبِ يتظاهرونَ في اليومِ التّالي

كان مقرراً بين الحلفاء خـــلال الحرب الاولى استفتاء الشعوب المحكومة لتقرير مصيرها . وكانت الولايات المتحدة الاميركية في غفلة عن دسائس السياسة الأوربية ومؤامراتها . فلما وقعت الثورة الحمراء في روسيا عام ١٩١٧ ، كشف امر اتفاقـــات سايكس — بيكو السرية التي اقتسمت فيها بريطانيا وفرنسا ، فيما بينهما ، تركة الرجل المريض ، وكانوا يعنون بذلك الدولة العثمانية . ويوم وضعت الحرب الأولى اوزارها ، طالبت الحكومة الأميركية كلاً من فرنسا و بريطانيا بتأليف لجنة مشتركة لاستفتاء الشعوب المحكومة ، الا ان الدولتين المتآمرتين رفضتا ذلك ، فانفردت امريكا بهذا الشأن ، ولم تبال برفض حليفتيها ، واوفدت الى سورية عـــام ١٩١٩ لجنة عرفت باسم احد رئيسيها وهو (كراين) ، جابت طول البلاد وعرضها واستمعت الى رغبات السكان ، على اختلاف اعراقهم ومذاهبهم. وقدمت اللجنة تقريراً بتحقيقاتها . الا ان هذا التقرير لم يقدم ولم يؤخر في مصير البلاد الذي تقرر في الاتفاقات السرية .

وهكذا ذاع اسم (كراين) في البلاد ، على انه رمز للحرية ، ولحقّ الشعوب في تقرير المصير . فلقد كانت لجنته البادرة الوحيدة التي ادخلت شيئاً من الطمأنينة على نفوس الناس ، وشيئاً من الثقة بوعود القوي التي يبذلها للضعيف .

ونفذت الاتفاقات السرية ، ودخلت جيوش الاحتلال بلاد العرب ، غير مبالية بأي مبدأ من المبادئ التي تغنت بها ، يوم كانت في صراعها الدامي مع الألمان .

وعرف العالم في اواخر الحرب موقف الرئيس (ولسون) ومبادئه التي حددها بأربع



طـــالبات دار المعلمات في احدى المظاهرات الوطنية . والصورة غنية عن التعليق



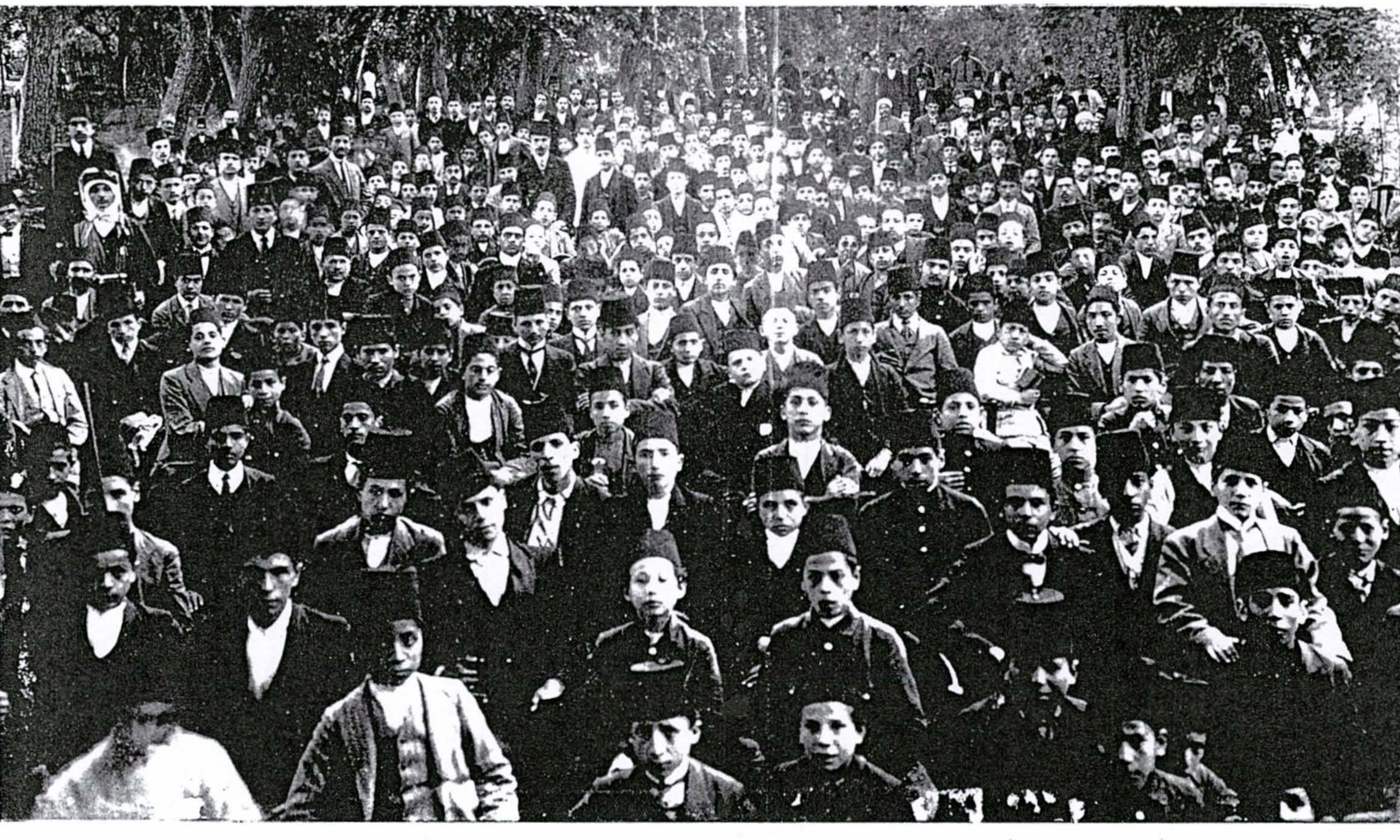
اضراب واجتماع طـــلاب الجامعة السورية ومكتب عنبر في احدى المناسبات الوطنيـــة في المرجة الخضراء . والخطيبة هي الآنسة ماري قطينة (١٩٢٩)

زيارة الملك فيصل الاول لمكتب عنبر عام ١٩٢٠

اضراب طلاب الجـامعة السورية ومكتب عنبر في احدى المناسبات الوطنية ١٩٢٩
واجتماعهم في المرجة الخضراء . وقد اقيم في مكانها اليوم الملعب البلدي ومدينة المعرض



في الصوفانية ـ حفلة تمثيل رواية السموأل ١٩١٢ . ويرى الدكتور سامي الميداني بالبزة الرسمية ، حاسر الرأس . وقد تولى رئاسة الجامعة السورية ، وتدريس الحقوق الدوليــة العامة والخاصة في كلية الحقوق



صورة جامعة لأساتذة وطلاب مكتب عنبر ، في حديقة الصوفانية بدمشق عام ١٩٠٨ في اليوم الذي مثّل فيه الطلاب رواية طارق بن زياد



طلاب الصف السادس عام ١٩٢٠ . ويلاحظ بينهم السيد صبري حمادة ، وهو الاول من الوقوف في الصف الاول الى اليمين .

عشرة مادة ، والتي جاء في المادة الثانية عشرة منها : « استقلال الشعوب الخاضعة لتركية استقلالاً ذاتياً »[1] ، وتأكد العرب من ان الرئيس (ولسون) كان جاداً في السعي لتنفيذ مبادئه ، فنالت السياسة الأمريكية بموقفها هذا عطف جميع الشعوب المغلوبة على امرها.

ولم تكد تنقضي سنتان على الاحتلال الفرنسي ، حتى عاد (كراين) الى سورية بزيارة خاصة . كان ذلك في عام ١٩٢٢ . فتلقاه المغفور له المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر واخوانه من قادة الحركة الوطنية بمظاهر الحفاوة والتكريم ، واقاموا لــه حفلة في احد بساتين دمشق القريبة ، ألقيت فيها الخطب الحماسية . فلما بلغ النبأ الى سلطات الاحتلال ، عمدت الى طرد (كراين) من البلاد ، فجرى لــه وداع حافل في فندق دامسكوس بالاس . وبعد سفره ألقي القبض على المرحومين الشهبندر وسعيد حيدر ، وعلى السيدين حسن الحكيم ومنير شيخ الارض .

وفي اليوم التالي قامت مدرسة دار المعلمات بمظاهرتها النسوية الأولى في البلاد . وقد روى لي الأخ الأستاذ شفيق سليمان ان شقيقته حرم الأستاذ احسان الشريف كانت بين الطالبات المتظاهرات ، وقد عرفت امها رحمها الله ما انتوت بنتها ان تفعل ، فمشت مع المتظاهرات . ولما بلغت المظاهرة المستشفى العسكري في بوابة الصالحية ، هاجمتها قوى الأمن لتفرقها . فالتفّت الفتيات حول السيدة الوالدة ، لانها اضحت في ذلك الوقت اماً لكل واحدة منهن ، تفزع اليها ، وتجد في الإلتفاف حولها الامان . فاعتقد رجال الامن ان هذه السيدة هي المحرّضة على الاضراب ، وهي منظّمته فاعتقلوها . ثم اخلي سبيلها بعد ساعات . وهكذا كانت المرحومة والــدة الصديق الاستاذ شفيق سليمان اول سيدة سورية اعتقلتها سلطات الانتداب .

لست ادري لماذا غفل مكتب عنبر عن مشاركة طالبات دار المعلمات في نفس اليوم بالتظاهر . الا انه اذا كان في اليوم الأول قد قصر ، فانه في اليوم الثاني قــد كفّر . وهكذا سرى الخبر في الصباح الباكر ، واخذ الطلاب يتذاكرون فيما ينبغي ان يكون . ولم تطل المذاكرات اكثر من ظهر ذلك اليوم ، حتى صاح صائحهم : هيــا نضرب ونتظاهر ، فقد سبقتنا بالامس طالبات دار المعلمات الى الاضراب والتظاهر ، تكريماً لهذا الرجل الحر ، وتأييداً للمبادئ التي اعلنها الرئيس ولسون ، واعلاناً لسخطنا على

---

١) راجع : السياسة الدولية ـ ج ٢ ـ صفحة ٢٥٧ ـ للدكتور نجيب الارمنازي ـ ١٩٥٠ ـ مطبعة الانشاء ـ دمشق .

الاحتلال الفرنسي الذي لم يكن له من مبرر الا القوة ، واحتجاجاً على اعتقال الدكتور شهبندر ورفاقه . وهكذا كان .

خرجت مظاهرة الرجال الأولى في هذا البلد من مكتب عنبر ، حوالي الظهر ، فتبعها الناس ، وشقت طريقها نحو القيمرية ، حتى اذا وصلت الى (النوفرة) ، وهي تغلي بالهتافات والنداءات ، وقف على البحرة القائمة هناك ، رجل شيخ ، اشيب اللحية والشاربين ، وضّاء الوجه ، اعتمر بالعمامة الأغباني . فاعتقد المتظاهرون والناس انه خطيب ، وانه يحب ان يبث نفثه المصدور ، فسكتوا ، وانقطعت اصواتهم ، واشرأبت اعناقهم الى هذا الشيخ الوقور الواقف . لقد كان خطيباً بليغاً ، لم تزد خطبته عن ثلاث كلمات عامية ، فقد كان من العامة الذين لذعتهم نار الاحتلال ، ولم يكن من اصحاب البيان ، ونزل عن البحرة وسط تصفيق الطلاب والناس ، وتأييدهم الواضح. كان هذا مظهراً من مظاهر سخط الناس على الاحتلال ، ناطقاً بيّناً ، معرباً عمّا في النفوس من آلام .

وتابعت المظاهرة مسيرها ، فاجتازت القباقبية فالقوافين فسوق الحميدية ، والناس يلتفون حولها ، ويتبعونها ، حتى وصلت دائرة الشرطة .

لم يكن في ذلك الزمان ما عرفناه بعد من دوائر للتنكيل بالمواطنين ، كسجن الدرك الفرنسي ، الذي كان يُسمّى (البريڤوته) Prévoté ، ولا الاستخبارات ولا غيرها ، وانما كانت دوائر الشرطة الوطنية ، هي وحدها صاحبة الاتصال مع النـــاس ، الا ان السلطة الفرنسية ، لم تقف مكتوفة اليدين ، امام هذه البادرة الخطيرة ، التي ظهرت فجأة في مدينة دمشق ، فجاءت بفرقة من جنودها ، ومن السنغال ، وببعض مصفحاتها ، الى دائرة الشرطة . وامرت المواطنين من الشرطة بالقبض على المتظاهرين .

كان ذلك غريباً على المواطنين من الشُّرَط ، فهم من ابناء هذا الشعب ، ساءهم ما ساء جميع الناس ، واغضبهم الاحتلال كما اغضب غيرهم ، وهؤلاء الفتيان يعبرون عمّا في نفوسهم من آمال ورغبات. ولكن لم يكن لهم بد من تنفيذ الامر ، فاقبلوا نحو الطلاب المتظاهرين بخطى متثاقلة ، تدفعهم القوة الى ارتكاب عمل تأباه ضمائرهم ، واخذوا ينصحون الطلاب باللين بالانصراف ، والطلاب يغالون في الهتاف للاستقلال ، حتى اذا كان لا بد مما ليس منه بد ، اعتقلوا فريقاً منهم ، وادخلوهم الغرفة الاولى المطلة على الشارع . الا ان المعتقلين لجُّوا داخل الغرفة بالهتاف ، وبالاناشيد الوطنية ، فدخل عليهم كولونيل فرنسي ، ومعه بضعة من الجنود السنغال ، فقد كان هؤلاء المساكين اداة ارهاب بيد

الاستعمار ، وقال الضابط للجنود بالفرنسية : اذا تكلم احد منهم (بم) ، يعني اضربوا ! بهذه اللغة كانوا يخاطبون السنغال ، فلم يكونوا يعرفون الفرنسية بالقدر الذي يتيح لهم فهم الأوامر ، ما لم تترافق مع اسماء الاصوات ، مثل (بم) ! وكان الأخ الصديق نصوح الأيوبي — وهو راوي اكثر هذا الحديث — واقفاً في النافذة ، لضيق المكان ، فأجاب الضابط بفرنسيته الطفلة يومئذ قائلاً : نحن طلاب لا نُضرَب . فما كان من الضابط الا ان اجتذبه من تلابيبه ، واهوى عليه ببندقيته ، يضرب جسمه الغض برأسها وعقبها . وهنا تدخّل احد ضباط الشرطة ، وانتهر الفتى بعنف ، ودفع به خارج الغرفة ، انقاذاً له من براثن الوحش ، وادخله غرفة اخرى قدّم اليه فيها الشاي ، واسارير الحزن بادية على هذا الضابط . وقد بقيت آثار الكدمات الزرق ، على جسم الفتى النصوح قرابة شهرين ، من عنف ما اصابه من ضرب البندقية . كما كان نصيب غيره من الرفاق بعض ما ناله ، نذكر منهم اليوم الاستاذ فريد قنوت ، والسيد عاطف حتاحت .

كذلك كانت عاطفة الشرط ، في تلك الأيام السود ، نحو ابناء البلاد ، نسجلها بكثير من الارتياح والاغتباط ، فما كانوا الا من صلب هذا الشعب . ولعل بعضهم تمنى ان يفتدي هؤلاء الفتيان بنفسه ، من تعذيب الجند الفرنسيين ، وسوء معاملتهم .

ولم تكن السياسية الفرنسية يومئذ على عنفها الذي عهدناه فيما بعد ، في قانون قمع الجرائم ، حيث احيل كثير من طلابنا الى المحاكم الأجنبية ليحاكموا وفقاً لأحكامه العجيبة . ولم تكن سجونهم في المزة قد اقيمت ، ولم يكن في نيتهم الذهاب بالتنكيل الى اقصى الحدود ، فاطلقوا الفتيان الى بيوتهم ، ولم يحتبسوهم ، ولم يحيلوهم الى محاكمة ، وانما اكتفوا بإرهابهم بضع ساعات في احدى غرف دائرة الشرطة .

وانطلق الفتى نصوح الأيوبي الى داره ، ليجد فيه اخاه المرحوم وجيه الأيوبي ، وكان موظفاً يومئذ ، فيسأله عمّا جرى ويروي الفتى لأخيه ما وقع ، فاذا هو يبارك ما فعل اخوه الصغير ، ويشجعه ، ويهنئه على هذه العاطفة الوطنية المتأججة ، وعلى قيامه بواجبه .

بهذا الروح الوطني الاصيل كانت أسر دمشق العريقة تتلقى ابناءهـــا المضربين المتظاهرين .

كانت مظاهرة مكتب عنبر للترحيب بكراين ، وللاحتجاج على اعتقال الشهبندر ورفاقه ، اول مظاهرة للرجال عرفتها سورية بعد الاحتلال . ومن الحق علينا ان نمجّد

مظاهرة اخرى قامت قبلها بيوم ، كانت فريدة من نوعها ، عميقـــة في آثارها ، هي مظاهرة طالبات دار المعلمات بدمشق للغرض نفسه ، فملأت اندية الشام بالحديث عنها ، وذهل الفرنسيون من اقامتها ، لا سيما وان الحجاب كان على وجوه النساء جميعاً ، والملاءة هي اللباس الوحيد لهن . ويقيني ان مكتب عنبر قد اثر فيه هذا السبق ، فوجد التخلف عن الرفيقات غير لائق ، فأبدى فتيانه من ضروب الشجاعة والبسالة ، بالقـــدر الذي يملكون ، ما يستحق ثناء التاريخ وتمجيده .

وليت من عرف من سيداتنا تفاصيل مظاهرة دار المعلمات يتفضل بالكتابة عنها .

هذه صفحة اخرى جديدة ، هي صفحة التظاهر ، كانت الفتاة الشامية صاحبة انطلاقها ، وبانية مجدها ، وكان الفتى الشامي متأسياً بأخته الفتاة في مضمارها .

أوّل مُظاهرة نسويّة عرفتها دمشق

جرت يوم ٦ نيسان ١٩٢٢

لقد عقّب الصديق الاستاذ نزيه المؤيّد العظم على الفصل السابق بمقال تحت هذا العنوان نشره في جريدة الأيام الدمشقية بتاريخ ٧ شباط ١٩٦٣ رقم/ ٨٧٣٣ / مصحّحاً بعض الوقائع التاريخية ، اجتزئ منه بما له علاقة في موضوعنا ، قال حفظه الله :

يقول الصديق الكريم لم تكد تنقضي سنتان على الاحتلال الفرنسي حتى عاد كرين (لاكراين) الى سورية بزيارة خاصة وجرى له وداع في فندق دامسكوس بالاس وبعد سفره القي القبض على المرحومين الشهبندر وسعيد حيدر وعلى السيدين حسن الحكيم ومنير شيخ الارض. وفي اليوم التالي قامت مدرسة دار المعلمات بمظاهرتها النسوية الأولى في البلاد . انتهى قول الاستاذ . (أي قول المؤلف) .

ونحن نقول لحضرته بأن مظاهرة دار المعلمات لم تكن المظاهرة النسوية الأولى التي قامت بالبلاد بل المظاهرة الاولى قامت ساعة وداع المستر كرين بأوتيل دامسكوس بالاس في اليوم السادس من شهر نيسان ١٩٢٢ ، على وجه — التحديد ، حيث تجمهر امام الفندق دامسكوس بالاس وفي داخله جمهور غفير من الرجال والنساء فوقف الزعيم شهبندر وخطب خطاباً قصيراً باللغة الانكليزية ثم هتف قائلاً ليحي الاستقلال السوري ، لتحي الامة العربية ، ولتحي الامة الاميركية . ثم خطبت احدى السيدات وسط هذه الجموع موجهة قولها الى المستر كرين خطاباً مثيراً قالت في آخره ان الحرية حليب سنرضعه لأطفالنا ما دامت الارض ارضاً والسماء سماء . وكان على ما اذكر في مقدمة السيدات يومئذ السيدة منيرة العسلي شقيقة الشهيد شكري بك العسلي وشقيقتها المرحومة بهيرة العسلي حرم السيد — الطباخ وحرم الزعيم شهبدر وشقيقته نجلاء زوجة الضابط الكبير ابو فؤاد البيلاني ونازك العابد وغيرهن كثيرات .

وقد اجاب المستر كرين على هذه الخطب بقوله : طالبوا باستقلالكم على الطريقة العصرية الحديثة تصلوا اليه وجماجمكم العربية على اجسامكم .

وبعد القاء هذه الكلمة ركب المستر كرين سيارته وسط جموع الشعب التي سارت معه وهي تردد :

نحن لا نرضى الحماية .

لا ولا نرضى الوصاية .

واستمرت المظاهرة حتى دائرة الشرطة حيث وقف الزعيم الشهبندر والقى خطاباً من خطبه النارية ألهب فيه مشاعر الناس . وفي المساء القي القبض عليه وعلى اخوانه وزجوا بالسجن ولم نتمكن من معرفة امكنتهم حتى اليوم الثاني وهكذا كانت هـذه المظاهرة بداية الانتفاضة على الانتداب الفرنسي بسورية وقد اشترك بها الرجال والنساء على السواء.

دمشق : نزيه مؤيد العظم

٥

وقد اجبته بالكلمة التالية :

كان الصديق الكريم الاستاذ المجاهـد نزيه المؤيد العظم الانسان الوحيد الذي استجاب لندائي المتكرر في هذه الفصول المتعاقبة ، والذي رجوت فيه ممن عاصروا الحوادث التي ألمت بها ، ان يدلوا فيها بمعلوماتهم ، وان يصححوا بعض ما يقع فيها من اخطاء . ذلك بما نشر حول اول مظاهرة نسوية قامت في دمشق . ومن الواضح انني لم ادرك بعض ما كتبت ادراك عيان ومشاهدة ؛ ولم ارجع الى شيء مكتوب او منشور ، وانما اعتمدت على ذاكرة الرواة وحدها ، واثبت الرواية بسندها كما اتصلت الي . وانا غير ملوم — فيما اعتقد — اذا كان في بعض ما رويت خطأ غير مقصود .

وهنا يتضح لي ان تاريخنا الحديث قد اهمل اهمالاً منكراً ، لا يجوز السكوت عنه . والا فما ادري ماذا تصنع وزارة الثقافة والارشاد القومي ، اذا لم تصنع تدوين هذا التاريخ الحديث ؟ ان المعاصرين الذين وعوا الحوادث ، وعاشوها ، وربما شاركوا فيها ، ما زال كثير منهم احياء بحمد الله . واذا كان بعضهم لا يرى القدرة عـلى الكتابة والتدوين ، او لا يحس الحاجة اليهما ، فان وزارة الثقافة ما انشئت الا لمثل هذا الغرض . وانني لأجد المناسبة لأهيب بها ان تعمل لما خلقت له ، بكثير من العجلة والدقة والاتقان .

وللصديق الكريم خالص شكري واعطر تحيتي ووافر مودتي .

٥ - مظاهرة عدائية ضد زيارة بلفور لدمشق عام ١٩٢٥

مكتب عنبر أول من نبه للخطر الصهيوني

وفي عام ١٩٢٥ مرّ (بلفور) Balfoure بدمشق . انه صاحب الوعـــد المشؤوم باهداء فلسطين الى اليهود ، يوم كان وزيراً لخارجية بريطانيا . ولم تكن قصة هذا الوعد قد شاعت وذاعت يومئذ ، او عرفتها العامة في كل صقع وناد . وكل ما في الأمر ، ان خاصة الخاصة قد ادركت من هو (بلفور) ، وما هو وعده ، وما هو مدى تأثيره على العالم العربي ، وما هي الشرور التي يمكن ان تنجم فيما لو انجز . ولم يكن لي يومئذ من العمر الا اثنتا عشرة سنة ، فلما انعقدت حلقة السمر في بيتنا ليلة قدومه ، سمعت اهلي وزوارنا يتحدثون عن اشياء غريبة ، لم استطع فهمها على وجهها : حلفـــاء ، يهود ، بلفور ، وايزمن ، وطن قومي ... واخذت احبس ذهني ، واجمع نفسي ، لأفهم هذا الموضوع الغريب، ففهمت بعضه ، وفاتني بعضه الآخر ، لصغر سني ، ولأنني كنت اخدم الضيوف الأصدقاء . فلما انفضت جلسة السمر ، رجوت اخي المرحوم الدكتور مسلّم ، وكان يكبرني بسبع سنين، ان يفهمني من هذا بلفور ، وما هو وعده؟ فأفهمني رحمه الله ما غاب عني ، بأسلوب يتناسب مع سني ، وعرفت منذ ذلك اليوم ان بلفور ، بلسان بريطانيا ، يريد ان يهب فلسطين لليهود ، وان يطرد العرب ، مسلمين ونصارى ، من هذه الارض المقدسة ، فكبر الأمر عندي ، وزين لي خيالي الطفل يومئذ ، ان قتل بلفور يمكن ان يقضي على وعده المجرم !

كنت يومئذ في مدرسة التطبيقات ، الملحقة بمكتب عنبر . وقد باكرت المدرسة منذ الصباح ، فوجدت بعض الرفاق قد سبقني اليها ، وتجمعوا . يحدّث كبيرهم صغيرهم ، وعالمهم جاهلهم ، عن بلفور ووعده. وما زلت اذكر ان طلاب مكتب عنبر قد اقتحموا

مدرسة التطبيقات : وعطلوا فيها الدروس ، وضمّونا اليهم ، واخذ واحد منهم يخطب في شرور هذه الجريمة النكراء ، ويندد بآثام القوة ، ويدعو للاضراب والتظاهر . لقـــد نسيت اسم هذا الطالب. ولم يذكره غيري ممن لقيت في هذه الأيام، لاتحقيق عن هذه الحادثة العظيمة .

وهكذا فهم مكتب عنبر ، بأساتذته وطلابه وخدمه، من هو بلفور ، وما هو وعده. وخرجت المظاهرة، فانضم اليها الناس سريعاً ، وكأنهم كانوا يترقبونها . ويبدو لي ان قوى الأمن لم تعارض هـــذه المظاهرة الا بمقدار ، فلم تفرقها . ذلك لأن فرنسا كانت حريصة في اكثر مراحل فترة الانتداب على اذكاء روح الكراهية للانكليز ، لما بين الدولتين من تنافس واضح على النفوذ في منطقة الشرق العربي . فلم يكن شأن قوى الامن بادئ الامر اكثر من مواكبة المظاهرة في طريقها . ان كل ما كانت تخشاه فرنسا في ذلك الحين ، هو استفحال الخطر ، ووصول المتظاهرين الى دار الحكومة ، او الدوائر الرسمية ، خيفة الاذى او التخريب . وقد فاتها يومئذ ان اية حركة في البـــلاد ، تنهض لمقاومة الاجنبي ، انما يمتد شررها اليها قبل اية سلطة اخرى . وهذا مصداق قوله تعالى: (وَلَوْلا دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلأَرْضُ) . ولست أعلم اذا كانت فرنسا قد شجّعت سراً على مثل هذا التظاهر ، لأغراضها الخاصة ، لا حرصاً على فلسطين واهليها ، وقـــد تكشف ابحاث العلماء والمؤرخين من الفرنسيين انفسهم عن حقائق هذا الامر ، حينما يفك أسر وثائق (الكي دورسه) Quai d'Orsay بعد خمسين عاماً من ايداعها فيها ، وفقاً للقانون الفرنسي .

وانقسمت المظاهرة قسمين ، فاما احدهما ، فقد قصد الجامـــع الأموي ، واكره سَدَنَتَهُ على اغلاق ابوابه جميعاً ، لانه قد شاع ان (بلفور) سيزور الجامع ، فأراد الطلاب من ذلك الحيلولة دون ان يدنس هذا المكان المقدس ، بزيارته ، وألغيت زيارته فعلاً .

واما ثانيهما فقد انطلق في الشوارع والأسواق ، وكنت بين رفاقي الطلاب ، فأسفت لجهل العامة سبب التظاهر . كانت نداآت الطلاب وهتافاتهم تشق عنان السماء ، تردد (فلسطين عربية، فليسقط وعد بلفور) . وكان العامة يرددون هذه الهتافات على النحو الذي استطاعوا ترديده . لن أنسى انني سمعت رجلاً الى جانبي يهتف (فليسقط واحد فركون) ، وآخر يهتف (فليسقط واحد فرفون) كان الحزن يغمرني يومئذ، لأنني كنت

اتمنى ان يفهم جميع الناس فهمي لما نحن فيه . ولكني اعود اليوم الى التفكير في ذلك ، فلا ارى فيه حرجاً ولا عوجاً . ان هؤلاء العامة قد وثقوا بأبنائهم طلاب مكتب عنبر ، لأنهم لا يتظاهرون الا لأمر وطني ، يعود على البلد كله بالخير ، ولأنهم لا يحتجون الا على ظلم نازل بالناس ، فلا جناح عليهم ان يرددوا ما يبدو لهم ، صواباً او خطأ ، ويكفي انهم قد اغلقوا متاجرهم ودكاكينهم ، وخرجوا من بيوتهم ، ليشاركوا في هـــذا التظاهر الوطني . ذلك فضل لمكتب عنبر على الحركات الوطنية في البلاد . انه يدفع الناس الى العمل الوطني ،ويحملهم على المشاركة فيه تلقائياً ، من غير ان يعرفوا تفاصيله ،ولا مراميه ، ولا حتى مبادئه وعناوينه ! يكفي ان يقول مكتب عنبر (ڤليسقط) ، ليقول الناس معه (فليسقط). اما من الساقط : هل هو بلفور ، او فرفون ، او فركون ، فذلك سواء ، لا يقدّم ولا يؤخّر . ويقيني ان في هذا دلالة اخرى عميقة ، على وطنيـــة الشام ، التي تستجيب للنداء ، بشعورها ، قبل تفكيرها .

وقد وقع ما كانت سلطات الانتداب تخشاه ، لأنه لم يكن ممكناً ان ينحصر السخط على بلفور ووعده ، لا سيما وانه كان مجهولاً ، وبين ارجاء الوطن قوى اجنبية تختال فيه ، بل كان الامر الطبيعي ان يمتد السخط الى فرنسا وانتدابها . وكان الانتداب يتمثل دوماً بدور الحكومة .لهذا اخذت قوى الامن تدفع المتظاهرين عن الوصول الى دور الحكومة. بدأ ذلك باللين اولاً ، فلم يفد ، لان جماهير المتظاهرين تدافعت ، فدفعت قوى الامن ، مما اضطرها لاستعمال القوة . كان بين طلاب مكتب عنبر ، فتى من دار المعلمين ، اسمه السيد فؤاد القادري . وكان هذا الفتى في الصف الاول من المتظاهرين ، اصابتـــه ضربة على وجهه ، فهتمت مقدمة اسنانه كلها ، فسال الدم من جانبي الشفتين .

هل تدري ماذا كان رد الفعل في مكتب عنبر ؟ انني لا استطيع تصويره اليوم ، ولا تصوير مغازيه السامية ، ولا الروح العالي الذي املاه ، ولا الشعور الرفيـــع الذي اوحاه . لقد قرر رفاقه الطلاب ان يلبّسوا اسنانه حلة من ذهب ، بدل الأسنان التي فقدها . ومن اين لهم المال ؟ انه من (خرجياتهم) الضيئلة ، التي كانت تعطى لهم من اهليهم ،لتسد بعض حاجاتهم . لقد جمعوا المال ،ورجوا رفيقهم القادري ان يقبل هديتهم ، فقبلها . وما زال الاستاذ القادري حتى اليوم ، يحمل اسنانـــاً من ذهب ، يزري بكل ذهب في الدنيا ، لانه من ذهب القلوب الذهبية ، لا من ذهب معادن الارض !

هذا هو التضامن الذي كان يجمع طلاب مكتب عنبر في ايامنا . وهذا هو الروح

الذي سما بالفكرة الوطنية حتى بلغت اوجها . فتيـــان في عمر الزهور ، يعطيهم اهلوهم الأبو الخمسين ، والأبو المية[1] ، ليقتاتوا به ، او ليشتروا به قلماً او قرطاساً ، فيؤثرون الجوع ، ولا يرضون ان يستبدلوا اسنان رفيقهم بأسنان عادية ، بل يعمدون الى الذهب ليزداد جمالاً في فم هذا الفتى . ولو قدروا على ما هو اثمن منه ، لما قصّروا .

لقد كان مكتب عنبر اول من نبّه الناس الى مأساة فلسطين ، واول من علم الناس من هو بلفور ووعده . واكاد اجزم ان هذه المظاهرة الاولى التي قامت في وجـــه الصهيونية من مكتب عنبر ، ما زالت مستمرة حتى اليوم . ولعلها لو بقيت بين ايدي مكتب عنبر ، ولم تنتقل الى ايد اخرى ، لما كنا فيما نحن فيه !

١) ضربان من أصغر أنواع العملة الفضية التركية ، قيمة الأول خمسون بارة ، والثاني مئة .

٦ - زيارة دوجوفنيل إبان الثورة السورية

ثابت الحافظ لما لقيت المفوض السامي بالاستقلال

خلال الثورة السورية الكبرى أقالت فرنسا مفوضها السامي ، وبعثت بدلاً منه احد كبار رجالها ، هو (دوجوفنيل) De Jouvenel . وقد سبقت هذا الرجل دعايات وحكايات ، بعضها صحيح ، وبعضها مبالغ فيه ، وبعضها باطل . ولكن الثابت انه كان من الاحرار الذين اشبعوا بمبادئ العدالة ، وقواعد الانسانية . وقبل وصوله الى البلاد جرت له مذاكرات ومباحثات مع الوطنيين ، في باريس والقاهرة ، ليس هنا مكان تفصيلها . وقد عرف عنه انه كان مندوباً لفرنسا في جمعية الامم . والظاهر انه قد تراءى لفرنسا ان استفحال امر الثورة السورية يمكن ان يحله رجل مثله ، فاوفدته مفوضاً سامياً ، واعلن قبل وصوله خطته الشهيرة : الحرب لمن يريد الحرب ، والسلم لمن يريد السلم . ولو ان البلاد رضيت عن خطة (دوجوفنيل) ، فان فرنسا نفسها لم ترضَ عنها ، بدليل ان مدته لم تطل ، فاستدعي الى فرنسا بعد اشهر من قدومه ، ولم يعد اليها ، لاستقالته من منصبه .

كان (دوجوفنيل) المفوض السامي الوحيد الذي زار مكتب عنبر . وهذه الزيارة هي التي تعنينا في هذا البحث . ولعل سابقيه لم يبالوا بهذه المؤسسة ، ولعل لاحقيه قد اعتبروا بما جرى له .

عرف امر الزيارة قبل وقوعها بأيام ، وانتشر خبرها بين الطلاب ، فألّفوا وفداً منهم قابل المدير المرحوم جودة الهاشمي ، وطلبوا اليه العمل على الغاء هذه الزيارة ، لما يمكن ان تجر من مغاب . وكان من بين الوفد السادة حسن الكرمي ، احمد الشيشكلي ، سعيد الريّس ، عبد الغني الكرمي ، عبد الباسط العلمي ، ثابت الحافظ . ولكن المرحوم

الهاشمي لم يكن يملك من الأمر شيئاً، وان كنت واثقاً انه كان رحمه الله، يشارك الطلاب في عواطفهم وآرائهم . فقد كان البلد محكوماً من قبل الجيش الفرنسي مباشرة . وكانت الحكومة المحلية برئاسة رجل فرنسي اسمه : (بيير اليب Pierre Alip) .

كنت يومئذ في الصف السابع ، لا تزيد سني على ثلاثة عشر عاماً . وقد حققت في هذه الايام عن تفاصيل الزيارة من بعض الاصدقـــاء الذين كانوا اكبر مني سناً ، على الرغم من انني احد شهودها ، وما زالت صورتها مطبوعة في ذهني حتى اليوم . الا ان استعادة القصة مع الاصدقاء ، كان له فضل التصحيح والتأكيد .

فالصديق الاستاذ رياض الميداني يروي انه شاع يومئذ ان دوائر مستشار المعارف ، قد استطاعت ان تجد طالباً ضعيف الايمان ، ليلقي خطاباً بالفرنسية ، لقّن اليه، يمجّد فيه فرنسا ومفوضها السامي . فتدارك الطلاب زجاجة كبيرة من حبر (الكوبيا)، والبسوه اياها قبل الزيارة بدقائق ، ليحولوا دون القائه الخطاب ، وقد تم لهم ما ارادوا بالفعل .

وأما الذي اذكره ، ويذكره الكثيرون ، ان الطلاب ، قد حشر معظمهم في الباحة الاولى ، وكنت منهم ، ورتّبوا على صفين متباعدين ، تفصل بينهما مسافة اربعة امتار تقريباً . وقد نبّه عليهم بأن يصفّقوا حين دخول المفوض السامي وبطانته . ولكن الذي وقع ، كان مضحكاً حقاً ، وكان درساً لم يعرف تاريخ الانتداب الفرنسي مثله ابداً . ان الذي وقع هو ان الطلاب قد باغتوا المفوض السامي وبطانته ، بعد ان توسط صفوفهم ، بلعبة (بيل بيل) . ولكي يعرف قراء اليوم ما معنى هذا الكلام ، لا بد لي من ان اشرح لهم هذه اللعبة التي انقرضت فيما اعتقد ، فلم اعد اسمع عنها شيئاً .

كانت هذه اللعبة شائعة في ايامنا، نلعبها خلال الفرصة الكبرى . وقاعدتها ان تقسم الباحة الى نصفين ، بخط على الارض ، وان تؤلف من الطلاب فرقتان متساويتان.وتبدأ اللعبة بأن يتجاوز واحد من افراد الفرقتين الخط ، فيضحي بين افراد الفريق الثاني ، فاذا استطاعوا القبض عليه ومنعه من تجاوز الخط ثانيـــة ، اخرج من اللعب ، وكنا نصطلح على ذلك بقولنا (مات) ، بمعنى ان فريقه قد خسره . اما اذا استطاع ان يمس واحداً او اكثر ، ولو بأطراف اصبعه، وان يتجاوز الخط ، فان الذي مُسّ يخرج من اللعب او (يموت) فيخسره فريقه . وهكذا يعاود الكر والفر بين الفريقين، الى ان يبقى شخص واحد من الفريقين، فيكون هو الرابح . وكنت ترى فرداً يتجاوز الخط ، فيحوم وهو يركض بين افراد الفريق الثاني ، وهو يدمدم (بيل بيل ...)، وافراد الفريق الثاني

يحتالون للقبض عليه ، فاذا ما مسّهم او مسّوه ، كانت معركة للتخلص منهم ، وللمحافظة عليه من غير ان يستطيع تجاوز الخط .

ولك ان تتصور ، بعد هذا الوصف ، صفّين من الطلاب ، هجما على بعضهما ، والمفوض السامي وبطانته يتوسطانهما ، وكلهم يدمدم (بيل بيل ...) دون انقطاع ، وهذا يحاول ان يعود ، واولئك يحاولون ان يقبضوا عليــه . كان هذا الاستقبال بديلاً عن التصفيق والترحيب بالمفوض السامي ، الذي اخذته الدهشة ، وعقد لسانه الاستغراب ، ولم يعرف ما هذا الذي جرى ، وان كان قد ادرك انه فوضى مقصودة ، اعراباً عن السخط العميق على الانتداب الفرنسي .

واما الطلاب الذين كانوا وراء الصف الاول ، فقد تفرقوا تحت الرواق الذي يمتد على اطراف الباحة ، واخذ بعضهم يتسلق الأعمدة الحديدية التي كانت تقل سطوح القصدير القائمة فوق الرواق ، فكان فريق منهم في صعود ، وآخر في هبوط ، وهم يهرجون ويمرجون ، ويتصايحون ، واخذ فريق آخر منهم يلعب بالطابة ، وهي لعبــة تجمع العشرات من الطلاب ، وتدعوهم للركض من اول الباحة الى آخرها .

بهذا الاخراج السينمائي العجيب ، استقبل مكتب عنبر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في دولتي المشرق . ولعلنا ، لو اردنا اليوم تمثيل الحادث وتصويره ، لما بلغنا من الاتقان والترتيب ، ما بلغه المكتب في ذلك اليوم ، لأن ما فعله كانت تدعو اليه المشاعر المنبعثة من اعماق النفوس ، دون تصنّع او تكلّف .

وبعد ذلك اقتيد (دوجوڤنيل) الى قاعة الرسم . وها اني اترك للاخ ثابت الحافظ ، بطل هذا اليوم ، سرد ذكرياته كما حفظها ، قال :

في صباح اليوم المقرر للزيارة جيء الى مكتب عنبر بمئة شرطي ، احتلوا قاعــة الطعام ، والغرفتين المجاورتين للباب . وجيء بالأعلام الفرنسية ، فنصبت عــلى باب المكتب وفي باحاته . وحوالى الساعة الحادية عشرة جمع خمسة وعشرون طالباً ، كانوا معروفين بحماستهم واندفاعهم ، ووزعوا على غرفتي الموسيقى والرسم ، وارغموا على البقاء فيهما كرهاً . وكان نصيب ثابت غرفة الرسم . وقد بدا له فيما بينه وبين نفسه امر ، فاعتزم على تنفيذه . فاستأذن بأن يأتي من المهجع بمعجم الفرائد الدرية ، فلم يؤذن له ، وانما لبّوا رغبته ، فجاؤوا له بالمعجم . واخذ الفتى ثابت الحافظ يكتب خطاباً بالعربية ، ويستعين على ترجمته بهذا المعجم . وكان استاذ الرسم المرحوم عبد الوهــاب ابو السعود ، فأعطى

كل واحد من الطلاب رسماً جاهزاً ، ايهاماً بأنه هو الذي صنعه . فاستطاع ثابت بذلك ان يخفي ما يكتب تحت الرسم الذي اعطي اليه .

قال ثابت : وبعد ان انجزت خطابي ، رأيت ان اعرضه على استاذي شكري الشربجي ، لانني اثق بوطنيته ، وبتمكنه من اللغة الفرنسية ، وبعد ان اطلع عليه نصحني بالعدول عنه (وسترى تفصيل ذلك في حديث استاذنا الشربجي بعد قليل) . الا ان الفتى لم يأخذ بنصيحة الأستاذ ، وبقي الأمر سراً مكتوماً بين الطالب واستاذه .

قال ثابت : لم ادر ماذا وقع خارج قاعة الرسم ، قبل وصول (دوجوڤنيل) اليها الا بعد انتهاء الزيارة . لاني بقيت محبوساً فيها طول النهار مع بعض الرفاق ، وقد أُتي لنا بطعامنا الى القاعة ، وهذه هي المرة الأولى التي عرفنا فيها (السندويش) . الا انني ما زلت اذكر ما وقع داخل القاعة . فقد دخلها المفوض السامي ، مع بطانته ، وابدى اعجابه باللوحات المعلقة على جدرانها ، ونظر الى بعض الرسوم التي بين ايدي الطلاب . وبينا هو كذلك ، رفعت اصبعي مستأذناً ، فأذن لي بالكلام ، فاقتربت منه ، واشرت الى لوحة على الحائط ، وقلت بفرنسيتي الركيكة : هذه صورة طارق بن زياد ، البطل العربي الذي فتح الاندلس ، ومنها انتشر نور المدنية الى اوروبا . فابدى الرجل ارتياحه لهذا الكلام. ثم التفتُّ الى لوحة اخرى وقلت : هذه صورة (فكتور هوغو)Victor Hugo ، وهو شاعركم الذي مجّد الحرية ودعا اليها . فازداد ارتياحاً . ثم اطلعته على ورقة مكتوبة بالفرنسية ، وافهمته انها خطاب ، فهل يحب ان يسمعه ؟ فرحّب الرجل ، واشار بسوطه الذي يحمله بيده الى بطانته ليتحلقوا ويسمعوا كلام الخطيب ، فأخذ ثابت بالقاء خطابه .

في ذلك الوقت ، كان صوت الرصاص يملأ سماء المدينة ، وكانت مدفعية الفرنسيين تقصف الغوطة قصفاً شديداً .

سألت ثابتاً : هل ما زال نص الخطاب لديه ؟ اجاب : كلا ! ولكني احفظ معاني اكثره ، واحفظ مطلعه بالفرنسية . لقد قلت :

Moi à la langue de mes camarades je viens de tu demander l'indépendance.

وواضح لمن يعرف مبادئ الفرنسية ما في هذه الجملة من اخطاء عديدة ، ولكنها مفهومة المعنى ، وانما اثبتُّ النص كما املاه عليّ ثابت ، وكما اكّده استاذنا الشربجي ، لطرافته ، وللدلالة على ان الخطاب قد نبع من نفس الطالب ، لم يشاركه فيه احد .

وترجمتها : (بلسان رفاقي جئت اطلب منك الاستقلال) . ثم اشار الى ان الثوار ليسوا هؤلاء الذين يسمع صوت رصاصهم ليس غير ، وانما هم جميع سكان البلاد ، وان الحرية قد اكتسبناها من رحابة صحرائنا ، كما تعلمناها من تاريخ فرنسا ، ومن تاريخ الثورة الفرنسية ، وان فرنسا تناقض افعالها واقوالها ...

وانتهت رواية ثابت عند قوله : وبعد ان سمع الخطاب بكامله دارت محادثـة بينه وبين الاساتذة ، لم اعرف كنهها ، ثم سمعت (راجي) Ragey مستشار المعارف يقول لرجل عرفت فيما بعد انه (اسبر زمباكوس) ، (وكان رئيساً لديوان وزارة المعارف) امنعوا هذا الطالب من الخروج، فرأيت (دوجوفنيل) ينتهرهما ، ويحدثهما بالفرنسية لم افهم منه الا الفاظ (ولد صغير) — (شرف فرنسا) !

ورأيت اتماماً للتحقيق ان ازور استاذنا شكري الشربجي ، فأذن لي بهذه الزيارة في داره يوم ٢٤ تشرين الاول ١٩٦٢ . كنت اجهل ان استاذنا كان قـد قضى خمسة وتسعين يوماً في المستشفى ، وآثار المرض ما زالت بادية عليه . لقد استقبلني ببشاشته المعهودة ، وانسه المألوف ، وجلسنا نستعيد ذكريات مشتركة عزيزة علينا . ولما افهمته الغرض من زيارتي ، ندَّت منه زفرة عميقة ، وقال :

احب ان تعلم انني كنت في عداد الوفد الذي قابل (دوجوفنيل) في بيروت ، ممثلاً لمدينة دمشق . وكان ذلك قبل قدومه الى الشام بأيام . وانني قد خطبت بحضور الوفـد خطاباً طويلاً ، حماسياً ، باللغة الفرنسية (وهنا اعاد علي معظم الخطاب) ، كان مما قلت فيه : ان الدماء التي سالت في (فردون) Verdun و (المارن) Marne قد نسيت اسبابها سريعاً ، كما نسيت العهود التي قطعت للعرب ، الذين صدقوكم ، فقاموا بثورتهم العربية الكبرى على الترك . انني احد الضباط العرب الذين مشوا على اقدامهم ، تحت علم هذه الثورة، من مكة الى حلب ، في سبيل الخلاص من الترك، والتمتع بالاستقلال.

ولقد نظرت الى وجه استاذي بعد الانتهاء من اعادة خطابه ، والى انفعالاته وحركاته ، فوجدت ان آثار المرض كلها قد زالت ، وخيـّل اليّ انني لست امام رجل قارب الثمانين ، قد نقه من مرض طويل ، وانما انا امام ضابط عربي لا يتجاوز العشرين ، سجّل مع رفاقه بجهاده وجهادهم آمال امة عظيمة ، وتأكد لي ان سيرة هؤلاء الابطـال هي التي تصنع التاريخ ، لا الخطب الجوفاء التي لا تجاوز صماخ الأذن !

ولقد حدّثني الصديق العالم الدكتور نجيب الأرمنازي انه حضر الاجتماع الذي تحدّث

عنه استاذنا ، وان شكري الشربجي قد تحمس حتى بكى ، وابكى المفوض السامي .

قال استاذنا الشربجي : ثم عدت الى دمشق مع الوفد ، وبعد ايام علمت نبأ الزيارة ، فاقترحت الغاءها ، ولكن لم يسمع لي احد ، فلقد كان القوم عازمين على هذه الزيارة ، قد ركبوا في سبيلها رؤوسهم ، فلا يمكن ان يثنيهم عنها شيء . وتمت الزيارة بالفعل ، على النحو الذي وصفته ، وقد سبق لثابت ان لقيني قبل قدوم الزائر ، فأطلعني على خطابه ، وافهمته ان الفرنسيين قوم عاطفيون ، وانا اكثر معرفة منه باساليبهم ، لانني درست في مدارسهم ، وان مثل هذا الخطاب لا يمكن ان ينتج الثمرة التي يريد . الا انه لم يستمع اليّ ، فلما القى خطابه ، التفت (دوجوڤنيل) الى الأساتذة وقال لهم : اهكذا تعلّمون طلابكم ؟ وطلب مستشار المعارف (راجي) معاقبة الطالب ، فتدخلت وقلت للمفوض السامي : في مثل هذا اليوم اعدم والد هذا الطالب جمال السفاح . فما كان من (دوجوڤنيل) الا ان قال : اذا كان الأمر كذلك ، فانني اعفو ، لا عقوبات . وخرج من غرفة الرسم حردان ، متوجهاً الى الباب الخارجي رأساً ، مشيّعاً بصفير الطلاب . فما راعنا إلاّ قدوم (بيجان) Bejan ، الذي كان مستشاراً للشرطة والامن ، ومعه عدد من الجنود ، بأيديهم الرشاشات ، فسأله (دوجوڤنيل) : ما هذا ؟ اجاب : اريد ان اصفي حسابي مع هؤلاء الأوباش ! الا ان (دوجوڤنيل) قد تغلب عليه عقله ، وقال له بكثير من الحزم : اخرج ، انني آمرك بمغادرة المدرسة حالاً . فانصاع للأمر وانصرف ، وجنّب الله الوطن كارثة كانت ممكنة الوقوع على يد هذا الأحمق .

كانت الزيارة في يوم خميس ، وفي صباح السبت ابلغ ثابت الحافظ انه قد طرد . واتفق ان الّف (دوجوڤنيل) في تلك الفترة حكومة احمد نامي ، ودخلها المرحوم فارس الخوري وزيراً للمعارف ، والسيد لطفي الحفّار وزيراً للتجارة والزراعة . فذهب الطالب ثابت الحافظ الى الوزير الوطني يقول له : لقد طردت ، فما كان من المرحوم فارس الخوري الا ان اتصل بادارة المكتب ، وامرها باعادته فوراً ، كما امر بان تعاد له الفحوص التي فاتته ، وارسل معه شرطيه الخاص الى المكتب .

قال ثابت : ودخلت غرفة المدير المرحوم جودة الهاشمي ، فاستقبلني احسن استقبال ، وكان في الغرفة استاذنا حسن يحيى الصبان ، فأخذني من يدي ، وجعل يطوف بي قاعات الامتحان واحدة واحدة ، وهو يقدمني الى الأساتذة . وقد فاتني فحص الديانة ، فاستدعي المرحوم الشيخ عبد القادر المبارك من لجنة اللغة العربية ، وعقد لي فحصاً مستقلاً .

اما المرحوم فارس الخوري ، فيروي الصديق الشاعر ابو سلمى (عبد الكريم الكرمي) انه ذهب اليه مع وفد من الطلاب ، فلم يجدوه في مكتبه ، لمراجعته بشأن اخيهم المطرود ، ولكنهم لقوه اتفاقاً في ساحة الشهداء (المرجة) ، وعصاه على كتفه ، فتحلقوا حوله وقالوا : نحن طلاب مكتب عنبر . قال رحمه الله باسماً : تشرفنا ! قالوا : ان اخانا ثابت الحافظ طرد لأسباب تعرفونها . قال سآتي غداً الى مكتب عنبر ، فهيأ له الطلاب استقبالاً رائعاً ، فقال : شتان بين استقبال واستقبال !

هذا يوم من ايام مكتب عنبر ، ارجو ان يصدقني القارئ انني مسحت اكثر من دمعة وانا اسجل وقائعه ، وكفى بذلك وصفاً له .

٧ - صِبْيَةٌ يُجِيرُون

هل سمعت او قرأت ان صبية قد اجاروا اعداء لهم ولأمتهم ؟

اما انا (واعوذ بالله من قول انا)فأ شهد انني لم اسمع بمثل هذا الحادث العظيم من قبل ، ولم اقرأ له شبيهاً ، في هذا النزر اليسير الذي قرأت من تاريخ العرب والاسلام .

ولست ادري كيف اصف هذا الحادث العظيم ، ولا كيف اسميه ، فانني منذ سمعته – ورواتُه ثِقاةٌ مُصَدَّقون – ومعانيه السامية تضطرم في نفسي ، وتغلي بين جوانحي ، وتردني الى عالم رفيع من الأخلاق العربية الاصيلة ، التي وجدت لتبقى ، ولن تزول ما دام تاريخ العرب يقرأ ، وما بقي المعجبون بمحاسنه الخالدة متحلين بالتجرد والانصاف .

والقصة ، ولا اجد حرجاً في ان اسميها قصة ، لأن الله تعالى يقول : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَص » : جرت وقائعها خلال الثورة السورية ، ولعلها في عام ١٩٢٦ على وجه التحديد ، وها انا انقلها ، مقراً بأنني عاجز عن تصويرها كما ينبغي لها ان تصور :

لقد مرّ معك في هذا الكتاب[١] ان ثلاثة من الجند الفرنسيين ، قد جيء بهم ايام الثورة السورية الى مكتب عنبر ، وان احدهم كان يُسمّى (لافوره‌س Laforesse). وقد عرفت اخيراً، ان الثاني منهم كان يُسمّى (جان فالدان Jean Valdan)، وكان الطلاب يتندّرون، ويُسمّونه (جان فالجان Jean Valgean)، وكان من ارق الشباب الفرنسيين وارقاهم، يذكر الاساتذة الأحياء في مكتب عنبر – مدّ الله في عمرهم المبارك – انه كان يَدْرُسُ الحقوق، او الآداب ، في جامعة ليون Lyon الفرنسية ، وانه لم يكن

١) راجع ص ٥٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

ورفاقه من الجنود ، وانما كانوا من صف الضباط Sous-offiicier . وأن ثالثهم كـان يُدعى (ريجولو Rigolo) .

كان هؤلاء الثلاثة يقيمون ليلهم ونهارهم في مكتب عنبر ، وربما خرجوا لبعض حاجاتهم ، ولكنهم لا بد أن يكونوا فيه قبل الغروب . وكانت مدينة دمشق ، خلال الثورة السورية منطقتين اثنتين ، احداهما تسيطر عليها القوى الفرنسية ، وهي محدودة من الجسر الابيض حتى باب الجابية على خط الترام ، ثم امتدت حتى باب المصلى في الميدان . وفيما عدا هذا ، كانت المنطقة الثانية ، ولا يسيطر عليها الا الثوار ، ولا تعرف الحكومة المحلّية (كما كنا نسميها في تلك الأيام) ، ولا سلطات الانتداب اي نوع من انواع ممارسة الحكم عليها . ومن المفيد ان اشير هنا ، الى ان الضابط الوحيد لشؤون الناس العامة والخاصة في المنطقة الثانية ، اي منطقة الثوار ، كان ضابطاً اخلاقياً ، وان شئت قلت وازعاً دينياً ، فلم يُعرف خلال هذه الفترة ان جرماً من الجرائم الجنائية قد وقع ، فلا قتلٌ ، ولا سرقة ، ولا ما يشبهها . واذا تشاجر بعض الشباب فيما بينهم ، سارع العقلاء الى مصالحتهم .

ولقد كان مكتب عنبر في المنطقة الثانية ، ولست ادري كيف غامر الفرنسيون ، وارسلوا اليه ثلاثة من ابنائهم المدللين . ومهما يكن من شيء ، فان الواقع كان كذلك .

ورأيت الواجب يدعوني لعيادة استاذنا شكري الشربجي بعد ان ابل من مرضه ، وخرج من المستشفى ، واضحى قادراً على استقبال الزائرين . فقصدت اليه يوم السبت ١٩٦٣/١٠/٥ في داره ، وتهللت بشفائه ، وحمدت الله على استرداده لصحته . ودارت بيننا احاديث ، فيها من نشوة الماضي ما يسكر ، ويعطّر جو الجلسة بعبق ، كأنه عبق الجنان . وكان مما نبّهني اليه ، انني اغفلت حادثاً عظيماً في تاريخ (مكتب عنبر) ، لا ينبغي ان يخلو منه الكتاب ، لما له من دلالة بعيدة الغور ، ولما تحلى به من فروسية عزت على النظير في تاريخنا الحديث ، قال رحمه الله :

انت تعلم ان الأساتذة في (مكتب عنبر) كانوا يتناوبون الرقابة على الطلاب الليليين. وقد اتفق ذات ليلة ان كانت نوبتي في المراقبة . فلما انصرف الطلاب النهاريون، واغلق المكتب بابه الخارجي ، وامتنع على اي كان ان يدخل اليه او يخرج منه ، اويت الى القاعة الكبرى التي كان يجتمع فيها الطلاب الداخليون، ليكتبوا ويدرسوا فيها ، (الايتود Etude) . وما كاد الظلام يخيم ، ويحل وقت صلاة العشاء ، حتى جاء خمسة وعشرون

ثائراً الى المكتب ، فوجدوا حارسه (كاظم آغا) – وهو ارنؤوطي العرق ، شديد المحافظة علي الاوامر – يصلي العشاء في الفناء الواقع وراء الباب ، فبادروه بلهجة الملتجئ الخائف قائلين :

– كاظم آغا ! افتح لنا نختبئ فالدورية تلاحقنا .

فقطع كاظم آغا صلاته ، وسارع الى الباب يفتحـــه ، ويلجئ الثوار الذين تكلفوا الخوف ، واصطنعوا الفزع . ولم يكن ممكناً ان تصل قوات فرنسا في مثل تلك الساعة الى هذه المنطقة ، الا ان الرجل البريء الطاهر ، قد صدقهم . فلما اضحوا داخل المكتب ، تغيرت لهجتهم ، وَارْبَدَّتْ وجوههم ، وشهروا اسلحتهم ، وقالوا للحارس البواب : عندك ثلاثة من الفرنسيين ، عليك ان تسلمهم الينا . فأما كاظم آغا ، فضبط اعصابه ، ورحّب بهم ، واجلسهم على المقاعد الخشبية التي كانت في الباحة الخارجية ، وزعم لهم انه ذاهب ليأتيهم بالفرنسيين. وهرول الى استاذه الشربجي يحدّثه بما وقع ، فاضطرب ايما اضطراب ، ولم يكن في مثل ذلك الظرف اي متسع لتأنيب البواب على فعلته . وكان الطلاب قـــد سمعوا الحديث ، فتوقف الدارس منهم عن الدراسة ، والكاتب عن الكتابة ، ونهضوا جميعاً ، وعددهم قرابة مئة ، فانطلق فريق منهم الى الجنود يعطونهم من البستهم المدنية ، ما يمكن ان يغيّر من هيآتهم ، وانطلق الباقون الى الباحة الخارجية ، وكبيرهم – وهو اقلهم – لم يتجاوز الثامنة عشرة ، وصغيرهم – وهو اكثرهم – بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، فوجدوا الثائرين بانتظار الجنود على احر من الجمر. فلما لمحوا الطلاب هبّوا من مقاعدهم ، وكان لقاء بين الرجال والاطفال استمر اكثر من نصف ساعة ، اصر فيه الثوار عـــلى استلام الجنود الفرنسيين ، واصر فيه الطلاب على الإباء والرفض . قال واحد منهم :

– ليس مكتب عنبر هو المكـــان الشرعي لاستلامهم . ان شئتم بلّغناهم مأمنهم ، وذهبتم بعدها لاستلامهم من ثكناتهم .

وقال آخر :

– انهم في جيرتنا وعهدنا وذمامنا ، فلن تنالوا منهم .

وقال ثالث :

– ما كنا ننتظر ان تكون (مرجلتكم) عليهم بين جدران المدارس وفي الليل .

واختبط القوم واختلطوا ، ولم يعد ممكناً فهم الأحاديث الدائرة ، وما كنت تسمع

الا اصواتاً طرية صغيرة غضة تنطلق من حناجر الصبية ، واصواتــاً خشنة تصدر من افواه الثوار .

ولما يئس الثوار من امكان تسليم الطلاب للجنود الفرنسيين ، هددوا بالقوة ، وباللجوء اليها ، فلم يكن هذا التهديــد الا من اسباب التهاب حماسة الطلاب ، واندفاعهم في الاستمساك بموقفهم ، وقال احدهم :

لـكم ان تستعملوا القوة ، ولكن لا يمكن ان تصلوا الى الجنود الفرنسيين الا بعد ان تفنونا جميعاً ، فسنجعل من اجسامنا ترساً لهم ، حتى اذا قضيتم على آخر واحد منا ، استطعتم ان تصلوا اليهم !

وقد تنبّه الثائرون الى ان الموقف جد، وان حماسة الصبية صادقة ، ولم يكن لهم معهم غرض ، وما كان ممكناً ان يصيبوهم بأي اذى ، فانصرفوا وهم يبربرون ويزمجرون ، بربرة الفاشل ، وزمجرة المخفق .

قال استاذنا الشربجي : وما كاد (كاظم آغا) يفتح لهم الباب ، ويخرجون منه ، ويعيد اغلاق الباب من جديد ، حتى تنفستُ الصعداء ، وعادت الطمأنينة الى قلبي المضطرب ، واستبدل الله خوفي بالأمن ، وعدت مع الطلاب ، لا الى القاعة الكبرى ، ولكن لنتحلق حلقات عدة ، ولنتحدث عن هذا الحادث العظيم !

اما الجنود الفرنسيون ، فقد خافوا واضطربوا ، وعملوا بما اشار عليهم الصبية ، فلبسوا ثياب الطلاب المدنية ، فكان منظرهم لا ينقضي منه العجب ، فهذا لم يصل (البنطلون) الى اكثر من ركبتيه ، وذاك لم يكن اكبر (جاكيت) ممكن اللبس الا بعد ان تمزق ابطاه ، وذياك ارتدى (بنطلوناً) من لون ، و (جاكيتاً) من لون آخر ، وكانوا في موقف من الفزع ، اصطكت له ارجلهم ، وهلعت معه قلوبهم ، وعمد الصبيــة الى اخفائهم في الحمّام ، واتخذوا في بادئ الامر فريقاً منهم حرساً لهم ، ثم تنبّهوا بعد برهة الى ان حراستهم تكشف عنهم ، فتركوهم ، ولحقوا برفاقهم الى الباحة الكبرى .

وحينما رفع الله الغمة وكشفها ، وامن الجنود غائلة القتل المحتم ، انضموا الى الصبية في حلقاتهم ، وقال قائلهم ، وهو جان فالدان Jean Valdan ، وهو ارقاهم ، موجهاً كلامه الى استاذنا الشربجي ، ما معناه :

لقد قرأنا في كتب التاريخ العام ، ان العرب قد تمتعوا بخصال نبيلة ، منها الإجارة والعهد ، ولقد كنا نعتقد ان ما جاء في التاريخ ليس الا اسطورة محضة ، اما بعــد ان

رأينا حوادث اليوم ، فقد تأكد لنا انها حقيقة اكيدة ، وعلى كل فرنسي ، لا بل على كل اوروبي ، ان ينحني امام هذه السجايا التي ركبت فيكم ، والمزايا التي هي في جِبِلَّتكم. لقد كان موقف طلابك عظيماً ، لأننا نعلم ان وجودنا بينهم مفروض عليهم ، وانهم يكرهون ، لا اقامتنا بينهم ليس غير ، بل يكرهون النظر الى وجوهنا ، ولكنهم حينما جد الجد ، كانوا عرباً اصلاء ، لا بل ارقى طبقة من العرب الأصلاء ، لاننا لم نَستَجِرْبهم ، ولم نطلب اليهم حمايتنا ، وانما اعتبروا الاجارة ضمنية فيما بيننا وبينهم ، وهذا يدعو الى المبالغة في الاعجاب ، والى عظيم التقدير .

قال استاذنا الشربجي : واذا كانت ذاكرتي لم تخني ، فانني ما زلت احفظ بعض الفاظ (فالدان) ، فاملى عليّ الجملة التالية بالفرنسية :

Nous avons vu en histoire que les Arabes ont appliqué strictement la fidélité à la foi jurée, nous avons cru que c'était une pure légende, mais les événements déroulés, l'ont bien confirmée.

في صباح اليوم الذي زرت فيه استاذنا الشربجي ، كنت ادرس كتاب (الأحكام السلطانية للقاضي ابي يعلى محمد بن الحسين الفراء) لأختار منه الالفاظ والمصطلحات المتعلقة بنظام الحكم في الاسلام ، ولأضمها الى المعجم الذي احاول جمعه وتصنيفه. ومن اعجب الاتفاق، ان آخر ما قرأت في ذلك الصباح ، هذه الاسطر التالية[1] :

« واذا أَمَّنَ بالغ من عقلاء المسلمين حربياً لزم امانه كافة المسلمين .

« وا لمرأة في بذل الامان كالرجل .

« والعبد فيه كالحر ، سواء كان مأذوناً له في القتال ، او لم يكن .

« ويصحّ امان الصبي . نُصّ عليه »

ولقد دهشت لهذه المصادفة الرائعة ، وايقنت ان الصبية الذين حالوا دون الكارثة ، وان كانوا يجهلون هذا الحكم الشرعي ، الا انهم عرفوه بفطرتهم وغرائزهم ، لأنهم توارثوه جيلاً عن جيل ، وطبقة عن طبقة ، لا بالتعليم المدرسي ، بل بالنظام الاجتماعي السائد.

وبعد فهل قرأت او سمعت مثل هذا الحادث الفريد ؟

---

١) ص ١٤٥ طبع القاهرة – ١٩٣٨ – مكتبة ومطبعة مصطفى البـابي الحلبي واولاده – تحقيق محمد حامد الفقي .

إمتداد آثار مكتب عنبر في الآفاق

تلقيت قبيل العيد رسالة من القسطنطينية ، بعث بها اليّ رجل تركي الاصل ، نشأ في دمشق ، وترعرع فيها ، وتعلم في مدارسها ، تنقّل بين مكتب عنبر ودار المعلمين ، اسمه : (عمر صان وير) . وقد تحدّث في هذه الرسالة ، بكثير من العاطفة الصادقة ، والحنان الواضح ، عن هذا البلد واهليه وزعمائه وحوادثه ، وعن مكتب عنبر ، وبعض اساتذته ، واثره في نفسه . وقد رأيت ان الرسالة جديرة بالنشر ، لما فيها من المتعة والفائدة. كما بدا لي ان اقدم لها بكلمة اعبر فيها عمّا تركت في نفسي من المشاعر والآراء :

واول هذه المشاعر التي اضطرمت في نفسي هي الرابطة الاسلامية ، الممتدة الارجاء ، الواسعة الأفياء ، التي كانت وستظل محوراً تدور عليه كثير من الأمم والشعوب ، مهما تشعبت المسالك ، ومهما تعددت المذاهب . فالرجل الذي يكتب اليّ ، يفاخر في انه اشترك في مظاهرة (كرين) وحبس ، لأنه نشأ في هذا البلد وترعرع في نعمائه . وكيفما كان ابتداع اصحاب المذاهب الحديثة ، التي يتفلسفون بها على النشء ، فان هذه الرسالة دليل من بين آلاف الادلة ، على ان الاسلام اقوى من كل ما ابتدعوا ، ومن كل ما تفلسفوا .

وثانيها اعجابي البالغ بهذه اللغة السليمة الواضحة المشرقة التي كتبت بها الرسالة ، بقلم رجل ترك هذا البلد منذ قرابة اربعين سنة. وارجو ان لا تبالي ببعض ما ترى من الأخطاء اللغوية ، التي لا تعدو اصابع اليد الواحدة ، فانها ناشئة عن قلة الممارسة ، وبعد العهد.

وثالثها اغتباطي بهذا الاثر العميق الذي تركته دمشق ، ومكتبها ، في الآفاق . كان هذا الاثر ، كما ترى من الرسالة ، عميقاً ، بعيد الغور ، ومن يدري فاعل في الهند

وباكستان وايران وافغانستان والمغرب وغيرها من البلاد الاسلامية رجالاً مرّوا في مكتب عنبر ، فكان اسلامهم قوي البنيان ، كما بقيت عربيتهم مستقيمة اللسان .

وارجو ان يقبل مني الاستـــاذ عمر صان وير تحية الإخاء والود ، واعجاب الصديق على البعد .

والى القارئ هذه الرسالة الممتعة :

حضرة الاستاذ ظافر القاسمي المحترم

قرأت في جريدة الأيام الغرّاء الصادرة في ٤ شباط مقالـكم عن اول مظاهرة سياسية قامت في سورية الحبيبة ، وعن حادث كراين في دمشق . وقد هاجت ذكرياتي عندما قرأت ذلك،انا التركي الوحيد الذي رافق رجالات الرعيل الاول في سورية في سجن القلعة بدمشق ، امثال المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والمرحوم سعيد حيـــدر وسيادة حسن بك الحكيم اطال الله عمره . ولا أنسى قط اننا كنا (٤١) شخصاً في غرفة كبيرة، سقفها قبة، في وسطها نافذة ضمنها شبكة من حديد.وقد كنت حينئذ استاذاً في مدرسة قرية (الكسوة) ، يتذكرني ولا بد تلميذي الشيخ عبد الرؤوف ابو طوق . وكان يوم الجمعة ، صلّيت في جامع الأموي[١] ، ولما خرجت مع الجماعة كنت في وسط مظاهرة قومية رائعة ، تنادي بالحرية والاستقلال لأول مرة . وفي سوق الحميدية اضطررت انا لمقاومة القوات التي جاءت لقمع المظاهرة، مخاطباً اياهم بأن من حق كل امة ان تطالب بحريتها واستقلالها ، فما كان منهم الا ان قبضوا عليّ ، وساقوني الى الغرفة التي جـــاء ذكرها في مقالـكم ، ولما رآني هناك رئيس قسم التحري ابو رياح الكلسلي ، وهو من اصل تركي ، باركني ، وايقظني بأن لا اقول بأنني تركي ، لأن الفرنسيين سيشددون عليّ بسبب الحرب التي كـــانت قائمة حينذاك في أطنه ومرعش وعنتاب . ولكن بالرغم عن تكتمي ، ارسلت مصحوباً الى مكتب الكولونيل كاترو في عرنوس ، فحقق بنفسه عن قوميتي وسبب وجودي بدمشق، فقلت: انني تركي ، من مدينة خربوط ، جاءت اسرتي الى دمشق ، وعمل ابي حتى وفاته في سكة الحجاز ، وقد اضطررت لمقاومـــة القوات الحكومية بدافع اسلامي ، ولأني ترعرعت في هذا البلد وبنعمه . فأمر بارسالي الى سجن القلعة ، وبعد ان اجتمعت بالأربعين معتقل[١] في سجن القلعة ، جاء امر جديد بوضعي بزنزانة مستقلة ، بعيداً عن اخواني العرب ، فبقيت بالزنزانة يومين دون اكل ولا شرب .

١) كذا بالأصل

ثم نقلت الى غرفة اخواني بعد ان طلب ذلك البطل المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من قائد فرنسي جاء لتفتيش السجن .

وكان لا بد لي ان اثبت هنا ما اتذكره عمّا جرى ايام وجودنا في السجن ، ومن ذلك ان سطول[1] (الدندرما)[2] كانت تدلى من نافذة السقف بمعونة الخفر السوري الموجود على السطح كهدايا للمسجونين من السيد حمدي صاحب صالـــة (الدندرما) في سوق الحميدية الذي كان بيننا هو ايضاً . وحادث الفلاح الحوراني الذي جاء به الفرنسيون ووضعوه بغرفتنا بالضرب والشتم . فلم يمض كثير الا وشعر اخواننا ان ذلك الفلاح جيء به للتجسس علينا ، فابتعدنا جميعاً عنه . وكان السيد حمدي المذكور اعلاه يؤذن قائلاً (الله يلعن الفلاح) ، فيضحك الجميع ، ويطأطئ الفلاح رأسه ، حتى سحبه الفرنسيون ثاني يوم مجيئه ، ولم يعيدوه . **وقد كان المرحومان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وسعيد حيدر يلقيان محاضرات في مواضيع احداث القومية العربية لئلا يضيع وقتنا دون فائدة .** وقد أحيينا ذكريات السجن مع المرحوم الاستاذ سعيد حيدر عندما جاء لتركيـــا لاجئاً ابان الحرب العامة الثانية .

هذا وقد اغرورقت عيناي عندما قرأت مقالكم عن المرحوم الشيخ محمد الداودي استاذنا في دار المعلمين بدمشق ابان الحرب العالمية الأولى ، وقد تمكنت من زيـــارة المرحوم في داره ، في حي باب السريجة ، بعد ان هاجرت الى تركية بعدة سنوات ، وذلك احتراماً له ، واعترافاً بفضله الكبير عليّ . كما زرت المرحوم خليل الزركلي استاذي بالرياضيات في داره في عرنوس . واني اتذكر انني كنت الأول في الصف في درس اللغة العربية بالرغم من انني كنت واحداً من الثلاثة طلاب[3] الأتراك في الصف . وكان المرحوم الأستاذ محمد الداوودي يصرخ بي قائلاً (قم يا تركي) عندما يقف طالب عربي على اللوحة السوداء ، لممارسة الاعراب ، ولا يتمكن ان يقوم بواجبه كما يريده الأستاذ. وعندما اجيب انا موفقاً يوجّه الأستاذ لومه على الطالب العربي قائلاً: (ما بتستحوا ، ما بتخجلوا ، هذا تركي بيعرف لغتكم احسن منكم) ، وعلى ذلك يتهجم رفاقي الطلاب العرب عليّ بعد الدرس قائلين (ولك ليش بتجتهد كثير ، وبتخلي الاستاذ يزعل منا) . وكنت

---

١) جمع سطل .

٢) لفظ تركي اصطلح الناس على تسميته في هذه الايام (بوظة) .

٣) كذا بالأصل .

اجتهد كثيراً لحفظ قواعد اللغة العربية التي كان الأستاذ المرحوم يعلمنا اياها منظمة ، مثل : (افيدك فائدة ، ما بعد اذا زائدة) وغيرها . وقد قمتم ، بارك الله فيكم ، في مقالاتكم بوصف حالات الاستاذ المرحوم الشيخ محمد الداوودي بصورة صادقة ، واني اتذكر تكراره كلمة (سألني كيف انت قلت عليل – سهر دائم وحزن طويل)[1] الذي سمعته منه كثيراً .

هذا واني درست في مدرسة عنبر مدة شهرين قبل التحاقي بمدرسة المعلمين ، وذلك ايام مديرية الاستاذ محمد علي النابلسي . وقد كان استاذنا في الأدب التركي شاب اسمه بهاء بك ، وهو يقيم الآن كشيخ يجله الناس في بيته المطل على البوسفور بين اشجار الصنوبر ، في اعلى قرية (واني كوي) على ضفة الاناضول ، واني اقوم بزيارته احياناً ، لنعيد ذكرياتنا عن دمشق ومدرسة عنبر ، بقراءة وترجمة مقالاتكم الرائعة . ادامكم الله ذخراً للوطن ، ودمتم بالصحة والرفاهية لاخيكم .

المتقاعد

(عمر صان وير)

---

١) كذا بالأصل . وصوابه :

قال لي كيف أنت قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

أَوَّلُ ثَوْرَةٍ دَاخِلِيَّةٍ فِي مَكْتَبِ عَنْبَرْ

عام ١٩١٢ م

نشرت مجلة المضحك المبكي في العدد رقم / ١٠٦٦ / الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٤ مقالاً تحت عنوان :

الطلاب العرب عندما قاموا بثورتهم في مكتب عنبر .

كان من ابطالها سامي الميداني ، وسامي البكري ، واحسان الشريف .

وقد رأينا الحاقه بكتابنا ونشره ، لأن الحادثة الهامة المروية قد وودت في الصفحة (١٠١) من هذا الكتاب على شكل آخر . قالت المجلة :

ـ ويرجع تاريخ هذه الثورة الى عام ١٩١٢ ، اي قبل ان يطلق الملك حسين اول رصاصة في ثورة العرب الكبرى ، ويوم كان الأتراك ما زالوا المهيمنين على البلاد واصحاب السلطان فيها فلا يجرؤ احد من الناس ان يرفع رأسه او يتنفس بحرية ...

في ذلك العهد وقف مدير مدرسة عنبر امام الطلاب ، وقال لطالب عربي (بيس آراب) ، أي عربي قذر ، فأثارت هذه العبارة النخوة في رؤوس سامي الميداني والدكتور يحيى الشمّاع وسامي البكري واحسان الشريف ، فاجتمعوا في زاوية ساحة المدرسة ، اثناء الاستراحة ، واخذوا يتحدثون في هذه الاهانة التي ألحقها المدير بالعرب ، وانتهى الاجتماع الى تقرير ثورة عنيفة في المدرسة وتسقيط المدير واعلان حقوق العرب .

واستمرّ هؤلاء على درس هذا الموضوع بشكل جدي واخيراً عيّنوا موعد قيام هذه الثورة ووزعوا الأعمال فيما بينهم فكانت وظيفة سامي البكري ، إقفال باب المدرسة الخارجي ، حتى لا يخرج احد منها ، وكانت مهمة سامي الميداني قطع الأسلاك التليفونية

حتى ينقطع الاتصال من الخارج ، واعلن احسان الشريف أنه سيقوم بدور الفدائي من اجل تحقيق الهدف .

وفي اليوم المقرر لاعلان الثورة جاء هؤلاء في الصباح الباكر الى المدرسة فدخلوها بوجوه مصفرّة وقلوب خافقة ، فلما وصل المدير التركي قفل سامي البكري الباب وراءه وأخذ المفتاح بيـــده ، وصعد سامي الميداني الى السطح وقطع اسلاك التلفون ، ووقف احسان الشريف وهو يستعد للنزال ، واخذ الدكتور يحيى الشمّاع يهيئ الأسباب اللازمة للبدء بالحركة ...

وما هي الا بضع دقائق حتى هجم هؤلاء الطلاب العرب على المدير وجرّوه الى غرفة خاصة ، واقفلوا عليه الباب حتى يأمنوا شره ، وجاؤوا الى المبصرين فأخذوهم واحداً بعد واحد ، وسجنوهم في غرفة نائية ، وصعدوا بعد ذلك الى المدير وسقطوه عدة مرات . ثم أخذوا بيده وطردوه خارج المدرسة ، بعد ان حطّموا مـــا لاقوه في طريقهم من كراس ومقاعد وغيرها .

ودامت هذه الثورة بضع ساعات ، وقد تكللت بالظفر لأن الوالي الذي كان يسمى عارف المارديني قد أحس بها ، ولما علم ان الحق بيد الطلاب العرب عزل المدير فذهب هذا الى الآستانة يشكو الى ولاة الأمور ما لاقاه في دمشق من الطلاب العرب ، واتهم الوالي بأنه كان محرّكهم فاستاءت وزارة الداخلية من هذه الحركة وعزلت على اثرها الوالي من دمشق .

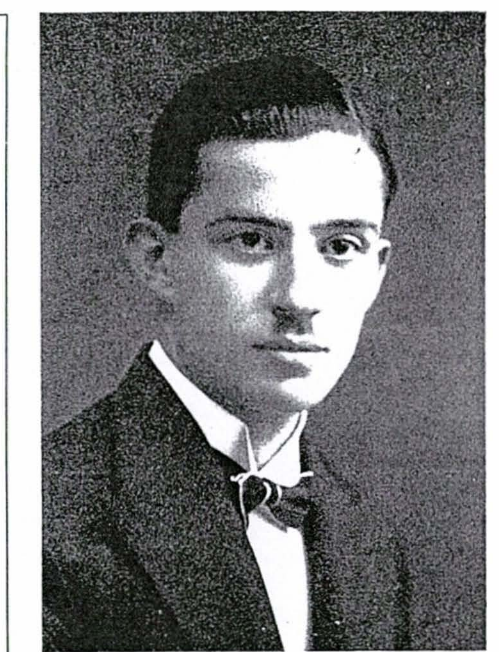
وكانت النتيجـــة ان طرد احسان الشريف وسامي الميداني وسامي البكري ويحيى الشمّاع من المدرسة ، بعد ان اعطتهم الادارة صفراً في الأخلاق .

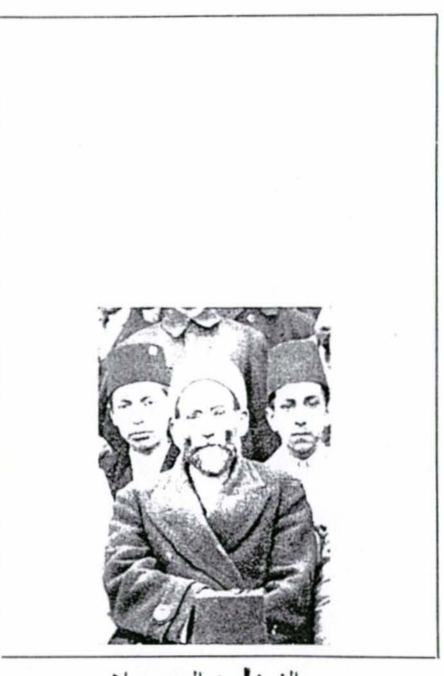
وهكذا كانت هذه الثورة أول ثورة عربية في تاريخ القضية .

٥

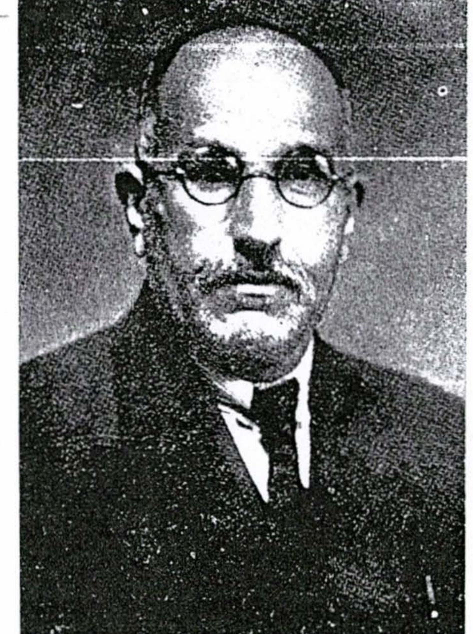
انتهى ما سجلنا من خواطر عن مكتب عنبر

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِين)


الدكتور مسلّم القاسمي


الشيخ عبد الرحمن سلام


الشيخ عبد القادر المبارك


الاستاذ سليم الجندي



الاستاذ محمد البزم



الشيخ محمد الداوودي



الاستاذ محمدعلي الجزائري



الاستاذ حسن يحيى الصباان



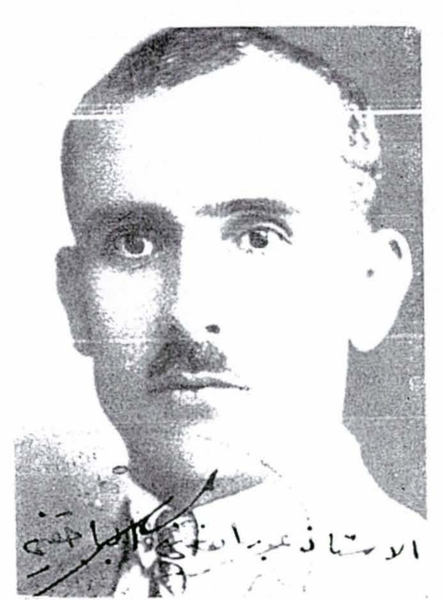
السيد راجه
مستشار المعارف لدى الحكومة السورية



الاستاذ رشدي بركات



الاستاذ يحيى الشماع



الاستاذ عبد الغني الباجقني



الاستاذ كامل عيّاد



الاستاذ ممدوح الشريف
الشهير بالخطاط



الدكتور صبحي ابو غنيمة



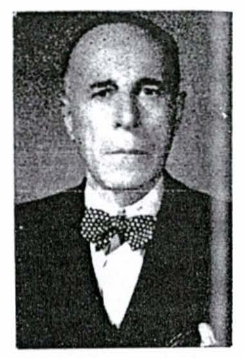
الاستاذ رشيد بقدونس



السيد نصوح الايوبي



السيد فؤاد القادري



الاستاذ شكري الشربجي



الاستاذ صالح التونسي

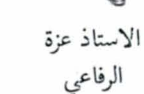


الاستاذ جميل صليبا



الاستاذ هاشم الفصيح





الاستاذ عزة الرفاعي

الاستاذ عاصم البخاري



بعض طلاب الصف الثاني عشر مع الاستاذ جان غولميه (Jean Gaulmier) . ويرى المؤلف واقفاً الى يساره . وفي هذه الصورة الفريدة دلالــة على تعلق الطلاب بالاستاذ غولميه وقربه اليهم . ولا اذكر ان طلاب مكتب عنبر قــد أحبوا حفظ ذكرى لهم مع استاذ اجنبي غيره .



السيد ثابت الحافظ



الاستاذ مسلّم عناية



الاستاذ جودة الهاشمي



الاستاذ الدكتور جودة الكيال



الاستاذ كامل نصري



الاستاذ عبد الوهاب ابو السعود

فهارس الكتاب

الموضوعات

صفحة

٧ – الاهداء
١٢ – المقدمة للاستاذ علي الطنطاوي
٣٣ – في الطريق الى مكتب عنبر
٣٨ – ما أحلى ايامك يا مكتب عنبر
٣٩ – مسلم عناية
٣٩ – المشايخ
٤٠ – صالح التونسي
٤١ – شكري الشربجي
٤٣ – المشايخ في مكتب عنبر
٤٥ – محمد الداوودي
٤٦ – عبد القادر المبارك
٥١ – سليم الجندي
٥٤ – محمد البزم
٦١ – الأبطال الذين أقاموا صرح العلم والوطنية والأخلاق
٦٣ – جودة الهاشمي
٦٧ – محمد علي الجزائري
٧١ – جميل صليبا
٧٥ – بقية الأبطال
٧٥ – جودة الكيال
٧٦ – يحيى الشماع
٧٧ – حسن يحيى الصبان
٧٧ – عبد الغني الباجقني
٧٨ – هاشم الفصيح
٧٩ – عزة الرفاعي
٧٩ – رشدي بركات
٧٩ – عاصم البخاري
٨٠ – كامل نصري
٨٠ – كامل عياد
٨١ – عبد الوهاب ابو السعود
٨١ – ممدوح الشريف الشهير بالخطاط
٨٢ – الأساتذة الفرنسيون
٨٧ – شهادة الاستاذ (غوليه) لزملائه في مكتب عنبر
٩١ – العطلة الصيفية
٩٧ – التاريخ السياسي
٩٩ – جمعية النهضة العربية وأثرها – كيف مثلت رواية طارق بن زياد في الصوفانية
١٠٤ – رشيد بقدونس اول من جاهر بتعليم الوطنية للطلاب في قاعات الدرس
١٠٨ – احياء الذكرى الأولى للثامن من آذار ١٩٢١
١١٢ – دار المعلمات أقامت اول مظاهرة سياسية
١١٧ – اول مظاهرة نسوية عرفتها دمشق
١١٨ – مظاهرة عدائية ضد زيارة بلفور لدمشق عام ١٩٢٥
١٢٣ – زيارة دوجوفنيل ابان الثورة السورية
١٢٤ – صبية يجبرون
١٣٥ – امتداد آثار مكتب عنبر في الآفاق
١٣٦ – اول ثورة داخلية في مكتب عنبر

الاعلام

ا

ابن خلدون : ٧٣
ابن زيدون : ١٤
ابن سينا : ٧٣
ابن طفيل : ٧٣
ابن المعتز : ٥٨
ابن نويرة : ٣١
ابو رياح الكلسلي : ١٣٦
ألأبوصيري : ٤٦
ابو عبيدة : ١٨
ابو فؤاد البيلاني : ١١٧
ابو نواس : ٥٨
احسان الشريف : ١٠١،١١٣،١٣٩،١٤٠
احمد حلمي العلاف : ٢٤
احمد سامي السمان : ٢٥
احمد شاكر الكرمي : ٢٠
احمد شوقي : ٢٦،٩٢
احمد الشيشكلي : ١٢٣
احمد كرد علي : ٩٩
احمد نامي : ١٢٨
اديب مردم : ٩٩
اسبر زمباكوس : ١٣٧
اسعد الحكيم : ٢٣
الأصمعي : ١٨
افلاطون : ١٩
ام كلثوم: ٩٥
انشتاين : ١٤
انور العطار : ٢٠،٢٦

ب

بدر الدين المغربي : ٦٧
بلفور Balfoure : ٢٦،١٠٣،١١٩،
١٢٠،١٢١
بهاء بك : ١٣٨
بهجة البيطار : ٥٦،٩٢
بهيرة العسلي : ١١٧
بو Baud : ٨٣
بونور Bonoure : ٨٣
بيجان Bejean : ١٢٨
بيكو Picot : ١١٢
بيير أليب Pierre Alipe : ١٢٤
بيو Pieux : ٧٦،٨٥

ت

تاج الدين (الشيخ) : ٢٩
ترابو Trabaud : ٣٥
تريس Tresse : ٨٣،٨٤،٢٢٤
توفيق البزرة : ٥٧

ث

ثابت الحافظ : ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩
الثعالبي : ٤٨

ج

جان فالدان Jean Valdan : ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤
جمال الحفار : ٩٩
جمال الدين القاسمي: ٧، ٥٧
جمال القوتلي : ٩٩
جمال باشا : ١٢٨
جميل صليبا : ٢٤، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ١٠٢
جميل مردم : ٩٩
جودة الرياضي : (راجع جودة الهاشمي)
جودة الكيال : ٢٢، ٤٦، ٧٥
جودة الهاشمي : ٢١، ٢٦، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨

ح

حافظ ابراهيم : ٩٢
حامد التقي : ٥٧، ٩٢
حسن الحكيم : ١١٣، ١١٦، ١٣٦
حسن السقا : ٦٤
حسن الكرمي : ١٢٣
حسن مراد : ٢٨
حسن الهاشمي : ٢٥
حسني سبح : ٤٦
حسن يحيى الصبان : ٧٧، ١٢٨
حسيب بيازيد : ٢٧
الحسين الاول : ١٣٩
الحصري : ٤٨
حكمة المرادي : ٩٩
حمدي : (بائع البوظة) : ١٣٧

خ

خليل الزركلي : ١٣٧
خليل الفرا : ٧٨
خير الدين الزركلي : ٢٦، ٥٧

د

دمنة الهندي : ٢٣
دو جوفنيل : De Jouvenel : ١٠، ٢١، ٤١، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨

ذ

ذكي الزجولة : ١٠١

ر

راجي Ragey : ٧٤، ١٢٧، ١٢٨
رشدي بركات : ٧٠
رشدي الحكيم : ٩٩
رشيد بقدونس : ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧
رشيد الملوحي : ١١٠
رضا مردم : ٩٩
رياض الميداني : ١٢٤
ريجولو Rigolo : ١٣١

ز

زكي الخطيب : ٩٩

عنبر — ٦

زهير بن ابي سلمى : ٩٢

س

سامي البكري : ١٣٩، ١٤٠
سامي العظم : ٩٩
سامي الميداني : ١٠٠، ١٠١، ١٣٩، ١٤٠
سايكس Sixe : ١١٢
سبنسر Spencer : ٣١
سعيد البحرة : ٧١
سعيد حيدر : ١١٣، ١١٦، ١٣٦، ١٣٧
سعيد الريس : ١٢٣
سليم البخاري : ٧٩
سليم الجندي : ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٩٢

ش

شريف رمو : ٢١
شفيق سليمان : ١١٣
شكري الشربجي : ٢٤، ٤١، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤
شكري العسلي : ١١٧
شكري القوتلي : ٦٥

ص

صالح التونسي : ٢٤، ٤٠، ٨٣، ١٠٩، ١١٠
صبحي أبو غنيمة : ١٠٠، ١٠١، ١٠٢
صبحي راغب : ٢٣
صبحي المليحي : ٩٩
صلاح الدين العظم : ٩٩
صلاح الدين القاسمي : ٩٩
صلاح الدين المنجد : ٥٢

ض

ضياء الدين القاسمي : ٧

ط

طارق بن زياد : ١٠٠، ١٠١، ١٢٦
طاهر الجزائري : ١٠٠
طه حسين : ٥٢

ظ

ظافر القاسمي : ١٢، ١٥، ١٦، ٢١، ٢٥، ٣٠، ٣١، ٣٢، ١٣٦

ع

عارف الشهابي : ٩٩
عارف المارديني : ١٠١، ١٤٠
عاصم البخاري : ٢٥، ٧٩
عاطف حتاحت : ١١٥
عبد الباسط العلمي : ١٢٣
عبد الرحمن السفرجلاني : ٢٣
عبد الرحمن سلام : ١٧، ١٨، ٤٥
عبد الرحمن الشهبندر : ١٠٦، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٣٦، ١٣٧
عبد الرحمن عبد ربه : ٢٣
عبد الرؤوف ابو طوق : ١٣٦
عبد الغني الباجقني : ٧٧
عبد الغني القادري : ١٠١
عبد الغني الكرمي : ١٢٣
عبد الفتاح الجندي : ٩٩
عبد الفتاح ملحس : ٢٣
عبد القادر المبارك : ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٨، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ١٢٨

عبد الكريم الكرمي : ١٢٩
عبد الله العلمي : ٥٦، ٥٧
عبد الوهاب ابو السعود : ٢٣، ٨١، ١٢٥
عثمان مردم : ٩٩
عزة الرفاعي : ٢٥، ٧٩
عزة الغبراء : ٢٣
علي الجزائري (المسيو) : ٢٤، ٦٧
علي الطنطاوي : ١٢، ٣٢
عمر بن ابي ربيعة : ٥٥، ٥٨
عمر بن الخطاب : ٥١
عمرو بن كلثوم : ٨٠، ٨١
عمر صان وير : ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨
عنبر : ٤١
عنترة : ٥٣
عيد السفرجلاني : ٢٣

غ

الغزالي : ٧٣
غوابه Guoibet : ١٠٦
غورو Gouraud : ١٨، ١٠٥، ١٠٦
غوليه Gaulmier : ٣٦، ٨٤، ٨٥، ٨٧

ف

فائز الشهابي : ٩٩
فارس الخوري : ٧٤، ١٠٦، ١٢٨، ١٢٩
فريد قنوت : ١١٥
فكتور هوغو Victor Hugo : ٢٥، ١٢٦
فهمي الرتا : ٦٩
فؤاد القادري : ١٢١
فوزي الغزي : ٥٨
فولفه Volvez : ٨٧
فيصل الأول : ١٧

ق

قاسم القاسمي : ٧، ٥٧، ٩٢
قدري باشا : ١٨

ك

كاظم آغا : ٢٨، ٣٥، ٦٩، ١٣٢، ١٣٣
كامل عياد : ٨٠
كامل نصري : ٢٣، ٨٠
كراين Crean : ١٠٣، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٣٦
كال الحلباوي : ٩٩

ل

لاشه Laché : ٨٥
لافورەس Laforesse : ٨٢، ١٣٠
لطفي الحفار : ٩٩، ١٢٨

م

ماجد الغزي : ١٠٩
محب الدين الخطيب : ٩٩
محمد البزم : ١٩، ٢٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩
محمد الجيرودي : ٢٧
محمد حامد الفقي : ١٣٤
محمد الحفار : ٩٩
محمد المحيسن : ١٠١
محمد الداودي : ٢٠، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١٣٧، ١٣٨
محمد علي الجزائري : ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠
محمد علي النابلسي : ١٣٨

محمد بن الحسين الفراء (ابو يعلى) : ١٣٤
محمد كرد علي : ٩٩،٢٧
محمود البحرة : ٣٥
محمود كرد علي : ٩٩
مختار الحفار : ٨٤
مرشد خاطر : ٩
مسلم عناية : ٣٩،٢٢،٢١
مسلم القاسمي : ١١٩،٩٢،٩،٨،٧
مصطفى البابي الحلبي : ١٣٤
مصطفى تمر : ٢١
مصطفى ثابت : ١٠١
مصطفى الصواف : ٢٤
المعري : ٥٢،٢
ممدوح الشريف (الخطاط) : ٨١
منير شيخ الارض : ١١٣
منيرة العسلي : ١١٧
الميداني (صاحب مجمع الأمثال) : ٤٩
ميشيل Michel : ٨٢،٢٤

ن

نازك العابد : ١١٧
نجلاء الشهبندر : ١١٧
نجيب الارمنازي : ١٢٧
نجيب الشهابي : ٩٩
نزيه المؤيد العظم : ١١٧،١١٦
نصوح الأيوبي : ١١٥،١١٠،١٠٩
نصوح دياب : ١٠٩
نور الدين القاسمي : ٢٨

هـ

هاشم الأتاسي : ١٠٦
هاشم الفصيح : ٧٨،٢٤

و

وايزمن Weizman : ١١٩
وجيه الأيوبي : ١١٥
ولسون Wilson : ٨٥،٨٤

ي

يحيى الحديدي : ٩٤
يحيى الشماع : ٧٦

البلدان والأماكن

ا

اسبانيا : ٣٠
استراسبورغ : ٣٦، ٨٥، ٨٧، ٨٨
أطنه : ١٣٦
الأفغان : ٦٧
اقريطش (كريت) : ٧٨
الأناضول : ١٣٨
الأندلس : ٤٢، ١٠١، ١٢٦

ب

باريس : ٩، ٧٤، ٨٤، ١٢٣
بريطانيا : ١١٢، ١١٨
بغداد : ١٩
البوسفور : ١٣٨
بيروت : ١٨

ت

تركية : ١٣٧

ج

الجزائر : ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧٠

ح

الحجاز : ٣٠
حلب : ١٢٧

خ

خربوط : ١٣٦

د

دمشق : ٢٠، ٣٠، ٣١، ٨٨، ٩٢، ٩٥، ٩٨، ١٠٣، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨
دوما : ٨٣

س

سورية : ١١٢، ١١٥
سيسيل (صقلية) : ٧٨

ص

صقلية (سيسيل) : ٧٨
الصوربون (جامعة) : ٨٧

ع

عنتاب : ١٣٦

ف

فرنسا : ٧٦، ٨٧، ٨٨، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٧
فلسطين : ١١٩، ١٢٠، ١٢٢

ق

القاهرة : ١٢٣، ١٣٤
القسطنطينية : ٩٨
قناة السويس : ٨٥

ك

كريت (اقريطش): ٧٧
الكسوة : ١٣٦

ل

ليون Lyon : ١٢١

م

مرعش : ١٣٦
مسرابا : ٩٤
مصر : ٨٧
ميسلون : ١٠٢، ١٠٣، ١٠٨

ن

نجد : ٣٠، ٣١

و

واني كوي : ١٣٨

ي

اليابان : ٩٢

احياء دمشق وابوابها واسواقها واماكنها

ا

الاكراد (حي) : ٣٥

ب

باب البريد : ٢٨
باب الجابية : ٨، ٣٤، ٥٦، ١٣١
باب السريجة : ٩٣، ١٣٧
باب المصلى : ١٣١
بوابة الصالحية : ١٧، ١١٣

ج

جامع حسان : ٣٤
الجادة الخامسة : ٣٥
الجامع الأموي : ١٢٠، ١٣٩

ح

حارة الشالة : ٥٣
حمام القاضي (زقاق) : ٣٥

خ

الخراب (حي) : ٣٥

ر

الربوة : ٢٦، ٨٢

ز

زقاق المكتبي : ٣٤

س

السكرية : ٣٤
سوق الا روام : ٢٨، ٢٩
سوق الحميدية : ٣٦، ١١٤، ١٣٦، ١٣٧

ش

الشاغور (حي) : ٩٣

ص

صدر الباز : ٩٣
الصوفانية : ١٠٠

ع

عرنوس (حي) : ١٣٧

غ

الغوطة : ١٨، ٩٣

ق

قاسيون : ١٨
القباقبية : ١١٤

القماحين : ٣٤
القوافين : ١١٤
القيمرية (حي) : ١١٤

م

محطة الحجاز : ١٧
المرجة : ٢٨
المستشفى العسكري : ١٧
المسكية : ٢٨
المنشية (حديقة الامة) : ١٨
المهاجرين (حي) : ٣٥، ٥٣، ٧٤
الميدان (حي) : ٣٥، ١٣١

ن

نهر القنوات : ٨

و

الوادي (وادي الربوة) : ٩٣

